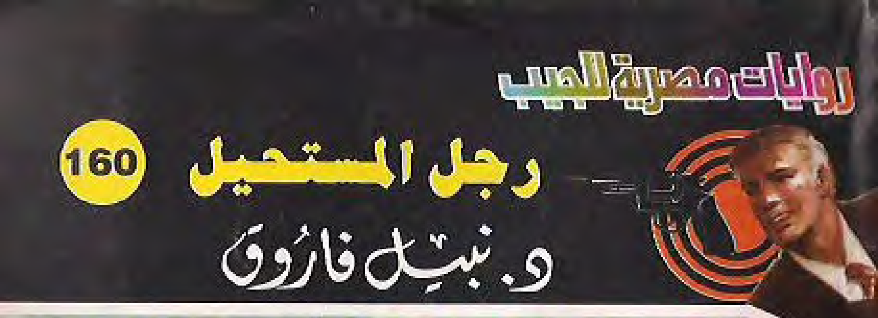


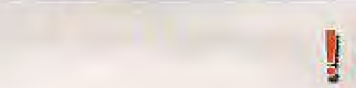
الوداع!



د. نبيل فاروق

رجل المستحيل

سلسلة روايات بوليسية للشباب زاخرة بالأحداث المثيرة





الوداع!

- قوات أربع دول ومخابراتها ، تطارد رجلاً واحداً بلا رحمة ..
- أكبر منظمتين إجراميتين تنضمان إلى ذلك التحالف الرهيب ..
- الإسرائيليون يسعون للسيطرة على العالم ..
- وعلى (أدهم صبرى) أن يواجه كل هذا وحده ..
- وأن يخوض معركة ضد العالم كله ؛ لإنقاذ العالم كله ..
- تُرى .. هل ينتصر (أدهم) فى معركته الأخيرة ، أم إنها مهمة (الوداع) ؟!
- اقرأ التفاصيل المثيرة ، وقاتل مع رجل المستحيل فى معركته الأخيرة .. بحق .

160

* اقرأ التفاصيل المثيرة ، وقاتل بعقلك وكيانك مع رجل المستحيل ، فى مهمته الأخيرة .

الثمن فى مصر 500
وما يعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم

المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية



160

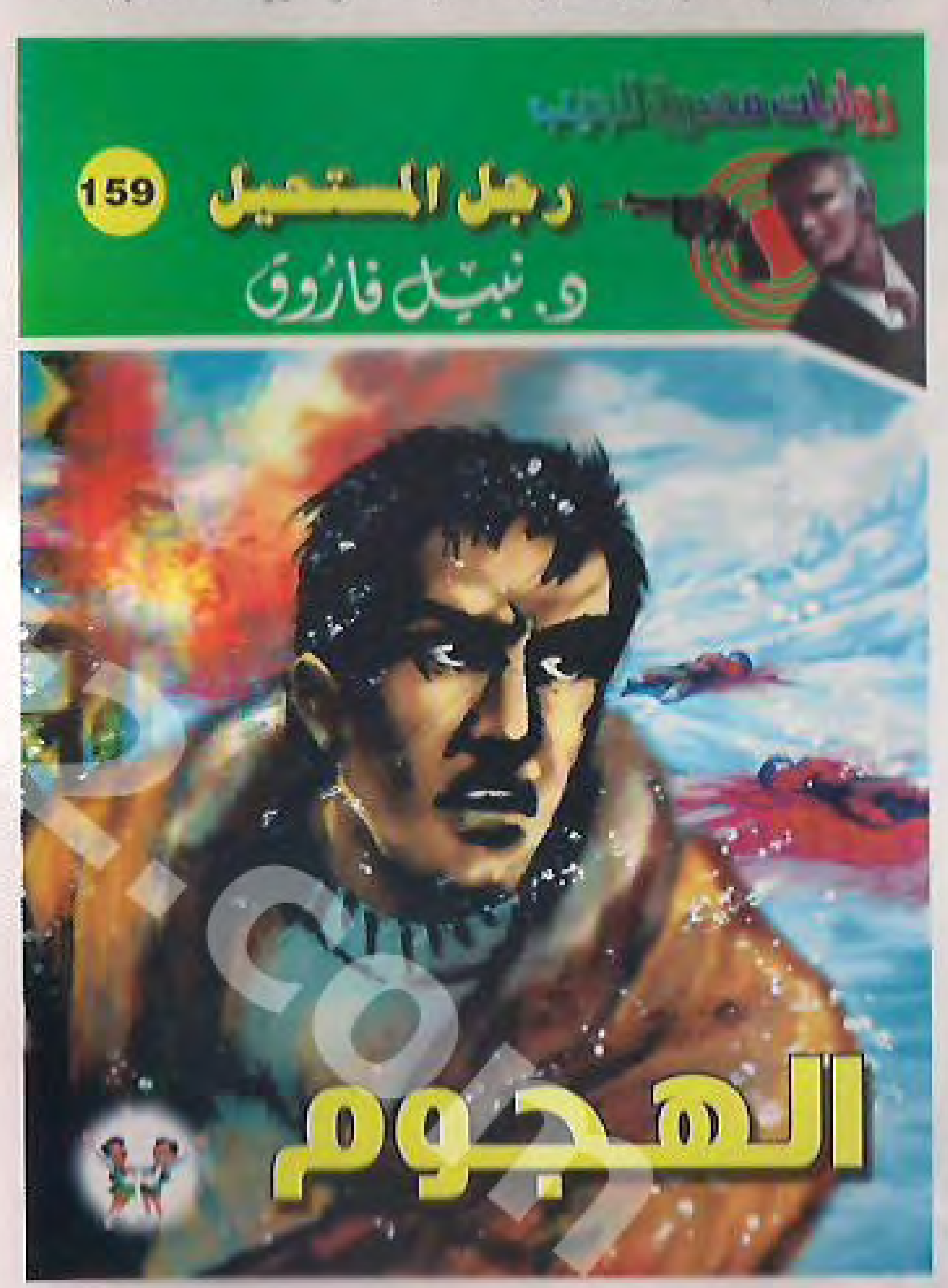
روايات مصرية للجيب

رجل المستحيل

الـــوداع

هل حصلت على نسختك من هذه الرواية ؟

إن لم تكن . . فبادر باقتنائها تكتسب متعة وتشويقًا لا حدّ لهما . .





رجل المستحيل

سلسلة روايات بوليسية
للشباب زاخرة بالأحداث المثيرة

●

مصنَّف مصرى مائة فى المائة
لا تشوبه شبهة الترجمة أو الاقتباس
أو النقل عن أية قصص أوربية .

●

إشراف
الأستاذ / حمدى مصطفى

●

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة - المطابع 10،8 شارع المنطقة الصناعية بالعباسية - منفذ البيع 10 ، 16 شارع كامل صدقى الفجالة - 4 شارع الإسحاقى بمنشية البكرى روكسى مصر الجديدة - القاهرة - ت : 26823792 - 25908455 - 22586197 فاكس : 202/2596650 ج.م.ع -
الإسكندرية 4 شارع بدوى / محرم بك - ت : 03/4970840 - 03/4970850

في كل رواية لذة دائمة

سلسلة روايات
رجل المستحيل

160

روايات بوليسية للشباب زاخرة بالأحداث المثيرة

الـــوداع

بقلم : د. نبيل فاروق

الغلاف بريشة : أ. أيمن القاضى

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية



الآن جاءت لحظة الوداع ..

وحانت النهاية ..

نهاية سلسلة ، استغرق صدورها ربع قرن من الزمان ..

سلسلة رجل المستحيل ..

ورجل المستحيل هو (أدهم صبرى) .. ضابط مخابرات مصرى ، يرمز إليه بالرمز (ن ـ 1) .. حرف (النون) ، يعنى أنه فئة نادرة ، أما الرقم (واحد) ، فيعنى أنه الأوّل من نوعه ؛ هذا لأن (أدهم صبرى) رجل من نوع خاص .. فهو يجيد استخدام جميع أنواع الأسلحة ، من المسدس إلى قاذفة القنابل .. وكل فنون القتال ، من المصارعة وحتى التايكوندو ... هذا بالإضافة إلى إجادته التامة لست لغات حيّة ، وبراعته الفائقة فى استخدام أدوات التنكّر و(المكياج) ، وقيادة السيارات والطائرات ، وحتى الغواصات ، إلى جانب مهارات أخرى متعدِّدة ..

لقد أجمع الكل على أنه من المستحيل أن يجيد رجل واحد ، فى سن (أدهم صبرى) ، كل هذه المهارات .. ولكن (أدهم صبرى) حقّق هذا المستحيل ، واستحق عن جدارة ذلك اللقب الذى أطلقته عليه إدارة المخابرات العامة ، لقب (رجل المستحيل) .

د. نبيل فاروق

1 ـ لحظة النهاية ..

اختفى قرص الشمس تمامًا ، خلف تلك السحب الداكنة السميكة ، التى غطت سماء (سيبيريا) ، وتوقف انهيار الجليد ، بعد ساعات طوال ، اكتسى بعدها كل شىء بطبقة كثيفة بيضاء ، أفقدت المنطقة كلها ملامحها ، فلم يبد وسط ذلك البساط الأبيض الثلجى ، الممتد لمسافة شاسعة ، سوى واجهة ذلك الكوخ الخشبى الصغير ، وتلك السيارات القوية المحيطة به ، والتى تعود كلها إلى طراز واحد رباعى الدفع ، مصمم خصيصًا للسير فوق طبقات الجليد السميكة ..

وداخل ذلك الكوخ ، بدت الصورة أكثر قتامة وغرابة من خارجه ..

فعلى الرغم من الجدران الخشبية الخارجية ، كانت الجدران الداخلية من الصلب السميك ، الذى يغطى كل شىء ، فيما عدا السقف والأرضية ، التى انغرس فيها عمود معدنى قوى ، يمتدّ من السقف إلى الأرض ، وحوله سلسلة سميكة من الفولاذ ، تلتف نهايتها فى إحكام شديد حول شخصين ، فى حين يقف أمامهما ثالث ، يدخن سيجارته الروسية ، ذات الرائحة النفّاذة ، وعلى شفتيه ابتسامة شامتة ظافرة ، وحوله رجال أشداء ، تطلّ شراسة الدنيا كلها من عيونهم ..

وفى ظفر شامت واضح ، واجه ذلك الثالث (أيل كوربوف) ، زعيم (المافيا) الروسية الشخصين المقيَّدين بالسلسلة الفولاذية ، قائلاً :

ـ ملفك يقول : إنك قادر على الخلاص من كل مأزق ببراعة فائقة وجرأة نادرة ، وعبقرية فذة أيها المصرى .

واجهه (أدهم صبرى) بنظرة متحدية ، على الرغم من الدماء التى تنزف من جرح كبير فى جبهته ، وإصابة واضحة فى أعلى الجانب الأيمن من ذراعه ، وهو يقول :

ـ وهل تصدقه ؟!

هزَّ (أيل كوربوف) رأسه فى سخرية وحشية ، قائلاً :

ـ ربما تساءلت عما قرأته من قبل ، أما الآن ، فيبدو لى أنه حتى لو كان صحيحًا ، فقد بلغ مرحلة النهاية .

قالت (منى) فى عصبية ، وهى تحاول التخلُّص من قيودها الفولاذية عبثًا :

ـ إنك لم تنتصر بعد .

نظر إليها (كوربوف) لحظة فى دهشة ، لم تلبث أن تحولت إلى ضحكة قوية مجلجلة ، قبل أن يميل نحوها ، قائلاً :

ـ إنها مسألة دقائق يا عزيزتى .

ثم اعتدل مشيرًا إلى ما حوله ، ومستطردًا :

ـ كما ترين .. الخروج من هنا مستحيل تمامًا .. الجدران كلها فولاذية ، لا تخترقها القنابل .. حتى الدبابات تعجز عن اختراقها ، وهذه الأنابيب الرفيعة ، التى ترينها قرب السقف ، ستضخ فور انصرافنا نوعًا من الغاز السام ، عديم الطعم والرائحة ، ولكنه يسبب إحباطًا عنيفًا للجهاز التنفسى ، يؤدى إلى الوفاة اختناقًا خلال عشر ثوان على الأكثر ، أما تلك الأنابيب السميكة عند الأرضية ، فستضخ كميات هائلة من المياه ، تكفى لإغراق الكوخ كله ، خلال خمس دقائق فحسب ، ولكن اطمئنى ، فقبل أن تكتمل هذه المدة ، سنكون قد ابتعدنا بدرجة كافية ، لنتفادى انفجار مائة قنبلة يدوية ، تزين السقف كله كما ترين .

وعاد يميل مرة أخرى ، ولكن نحو (أدهم) ، وهو يقول :

ـ باختصار ، لم أترك لك لمحة واحدة للفرار يا عبقرى المخابرات المصرية .

غمغم مساعده فى توتر :

ـ لماذا لم نطلق الرصاص على رأسيهما ، وننهى اللعبة كلها فى لحظة واحدة أيها الزعيم .

رفع (أدهم) أحد حاجبيه وخفضه ، وهو يقول فى سخرية ، لا تتناسب قط مع موقفه :

ـ ربما يكون هذا أكبر خطأ يرتكبه فى حياته .

رفع (كوربوف) حاجبيه ، وهو يدير يديه فى حركة مسرحية ، مجيبًا مساعده ، ومتجاهلاً قول (أدهم) تمامًا :

ـ وأين المتعة يا (جوركى) .. رجل كهذا ينبغى قتله بأسلوب مبتكر ، يسجله التاريخ باسم (أبل كوربوف) .

ثم التفت له رجل آخر يسأله :

ـ هل التقطت كل شىء ؟!

خفض الرجل آلة تصوير فيديو صغيرة عن عينه ، وهو يقول :

ـ كما أمرت تمامًا أيها الزعيم .

انتشى (كوربوف) ، وهو يقول :

ـ عظيم .. الوداع يا رجل المخابرات العبقرى .

ثم اتجه نحو باب الكوخ ، مضيفًا فى سخرية :

ـ سابقًا .

غادر الكوخ مع رجاله ، تاركًا (أدهم) و(منى) وحيدين ، مقيدين بالأغلال الفولاذية السميكة ، إلى ذلك العمود المعدنى ، فى منتصف الكوخ ، وما إن أغلق الباب خلفه ، حتى بدأت تلك الأنابيب الدقيقة فى بث ذلك الغاز السام فورًا ، ومع ذلك الفحيح الذى أطلقته ، التفتت (منى) إلى (أدهم) فى ذعر ، هاتفة بصوت مرتجف :

ـ (أدهم) .

ولكنه لم يجب ، فقد انعقد حاجباه ، وبدا شديد التركيز ..

إلى أقصى حد ..

وفى الخارج ، اتجه (كوربوف) ورجاله نحو سيارة كبيرة ، يحتجز رجاله فيها (قدرى) ، الذى هتف به فور رؤيته :

ـ ماذا فعلت بهما أيها المجرم ؟!

أشار إليه (كوربوف) فى لا مبالاة قائلاً :

ـ لا تقلق نفسك بشأنهما .. فكرٌ فقط فيما عرضته عليك .

هتف (قدرى) :

ـ اقتلنى معهما أيها السفاح .. إننى أُفَضِّلُ الموت .

ابتسم (كوربوف) فى سخرية ، وأشعل سيجارة أخرى ، وهو يقول :

ـ يقول الأمريكيون : احذر ما تتمناه ، فقد يتحقَّق .

ثم التفت إليه فى شراسة ، مستطردًا :

ـ ثم إننى لا أقبل الرفض .. حاول استيعاب هذا .

قال (قدرى) ، وهو يكاد يبكى يأسًا ومرارة :

ـ لن تنجح .. أقسم أنك لن تنجح .

أطلق (أبل كوربوف) ضحكة وحشية ساخرة عالية ، قبل أن يقول :

ـ هذا ما سمعته من (سونيا جراهام) ، قبل أن أدمرها تمامًا ، و(دونا) نطقته ، قبل أن توقِّع وثيقة موتها ، ولكننى تحديت الجميع ، وها أنذا أربح المعركة .

قال (قدرى) فى عصبية :

ـ لم تربحها بعد .

هزَّ (كوربوف) كتفيه ، قائلاً :

ـ عبارة لطيفة ، ولكنها تبدو مضحكة ، بعد أن تخلَّصت من كل الخصوم والمنافسين والطامعين ، وحصلت على المعادلة الناقصة ، لتشغيل أقوى سلاح عرفته الأرض ، بعد القنبلة الذرية ، وأصبحت عمليًا أقوى رجل فى العالم ..

والتمعت عيناه ، وهو يضيف فى زهو شرس :

ـ بل يمكنك أن تقول .. سيِّد العالم .

انسالت الدموع من عينى (قدرى) بالفعل ، وهو يغمغم :

ـ أنت مجنون .

التفت إليه (كوربوف) ، فى حركة شرسة غاضبة ..

وفى نفس اللحظة دوى الانفجار ..

انفجار عنيف ..

انفجار مائة قنبلة يدوية ، داخل كوخ من الصلب ..

انفجار أطاح بالسقف الخشبى لمسافة عشرين مترًا ، ليعبر فوق تلك السيارات القوية حول المكان ، وليرتفع معه لسان من اللهب لمسافة أكثر من عشرة أمتار ، مع سحابة هائلة من الدخان ..

وبسرعة استدار (كوربوف) إلى الانفجار ، وتحولت التماعة عينيه إلى بريق قوى ظافر ، وهو يهتف :

ـ فعلتها .

وعاد يلتفت إلى (قدرى) ، صارخًا فى زهو شديد :

ـ قتلت (أدهم صبرى) .. قتلت الأسطورة .

ثم صرخ بأحد رجاله :

- هل التقطت هذا ؟!..

وانفجر (قدرى) باكيًا فى عنف ..

لقد شاهد ما تمنى طيلة عمره ألا يراه ..

شاهد لحظة النهاية ..

نهاية (أدهم صبرى) ..

نهاية رجل المستحيل ..

* * *

لو أن هذا هو الفصل الأخير ، كما يراه زعيم (المافيا) الروسية ، فلكى نستوعبه ، لابد لنا من العودة إلى الفصل الأول من هذه الأحداث ..

أو إلى البداية ..

بداية الرحلة ..

رحلة الوداع ..

* * *

على الرغم من الأيام القليلة التى تفصلهم عنها ، بدت البداية ، لكثرة أحداثها بعيدة .. بعيدة للغاية ..

لقد كانت هناك .. فى (مصر) ، عندما استعان رجل المخابرات المخضرم السابق السيِّد (حسن) ، صديق عمر والد (أدهم) بهذا الأخير ؛ لحماية حفيده (هشام) ، الذى يتعرَّض لأمور غامضة مقلقة فى (تشارلوزفيل) ، بولاية (فيرجينيا) الأمريكية ..

وكمدرِّب ، ومن خلال رحلة تدريب ظاهرية ، سافر (أدهم) إلى (باريس) ؛ لينطلق منها إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، دون أن يدرى أن أجهزة مخابرات أربع دول قد تحالفت ضده ..

(إسرائيل) ..

و(أمريكا) ..

و(روسيا) ..

و(بريطانيا) ..

وأنهم قد ضموا إليهم (دونا كارولينا) ، زعيمة (المافيا) ، أقوى وأقدم منظمة إجرامية معروفة ، واستعانوا بأحدث تكنولوجيا عرفها العالم ..

(فرتيواليتى) .. كمبيوتر ضخم ، مبرمج بحيث يحوى كل تفاصيل حياة وشخصية (أدهم) ، حتى يماثله تفكيرًا وتدبيرًا ، ويمكنه أن يتوقَّع ويستنتج تصرفاته وتحركاته ، بنسبة تبلغ ما بين السبعة والتسعين والثمانية والتسعين فى المائة ..

و(ريد آى) ، ذلك الجهاز الحديث ، القادر على اختراق أية وسائل تنكر يلجأ إليها ، وكشفه مهما بلغت براعته ..

وقوات خمس جهات رهيبة ..

وجيوش لا حصر لها من الرجال ..

وكل هذا ضد رجل واحد ..

(أدهم صبرى) ..

وفى (باريس) بدأ الصراع ، ثم انتقل إلى (شارلوزفيل) ، ليواجه (أدهم) و(هشام) هناك جيشًا من رجال دونا ..

ثم تدخلت الإدارة الأمريكية بقوتها ..

وحان دور (المارينز) .. أقوى فرق الهجوم الأمريكية كافة ..

ومن (فرجينيا) إلى (واشنطن) ، دارت مطاردة مميتة ، بين قوات المارينز ، والشرطة الأمريكية ، وبين الرجل والشاب ..

(أدهم) .. و(هشام) ..

فى الوقت نفسه كان (أبل كوربوف) ، زعيم (المافيا) الروسية يحاول تشغيل ذلك السلاح الرهيب ، الذى تركته (سونيا) خلفها ، قبل أن تقع فى قبضة الأمريكيين ، و(تيا) الصينية الحسناء تسعى لضم (دونا كارولينا) إليها ، وتحرير (سونيا) ، فى حين كانت المخابرات المصرية تستعد لخوض الحرب إلى جوار رجلها ..

حرب المخابرات ..

وتشابكت الأحداث وتعقدت ، وقاتل الإسرائيليون للفوز بذلك السلاح الرهيب ، الذى يكفل لمالكه السيطرة التامة على الأرض كلها ، باعتباره أقوى سلاح عرفه العالم ، بعد القنبلة الذرية .

وتعقدت الأمور وتشابكت ، وسافرت (منى) مع (قدرى) إلى (واشنطن) ، ضمن خطة شاملة ، يشرف عليها السيد (حسن) بنفسه ..

وهناك فى (واشنطن) ، كان (أدهم) و(منى) و(قدرى) يواجهون موتًا محتومًا ، داخل منزل كان يفترض كونه آمنًا ، وفريق (كوماندوز) أمريكى يهاجمهم بقنابله ..

ودوت الانفجارات توقظ (واشنطن) كلها ..

بمنتهى العنف (*) ..

* * *

هب الرئيس الأمريكى من مكانه فزعًا ، فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ، مع دوى الانفجارات الرهيب ، الذى تردد فى (واشنطن) كلها ، واندفع يسأل حرسه الخاص فى هلع :

ـ ماذا يحدث ؟!.. ماذا يحدث هنا ؟!

(*) لمزيد من التفاصيل ، راجع الأجزاء الثلاثة الأولى (المدرب) ، (الخطة) ، و(الهجوم) .. المغامرات أرقام (157) ، (158) ، و(159) .

أعاده رجال الحراسة إلى حجرته ، وكبيرهم يقول فى حزم :

ـ لا تغادر حجرتك ياسيِّدى ، حتى نتبيَّن ما يحدث بالضبط .

هتف فى عصبية بالغة :

ـ هجوم إرهابى .. إنه هجوم إرهابى .. أليس كذلك ؟!

حاول رجال الحراسة دفعه إلى الداخل فى رفق ، وكبيرهم يكرِّر ، فى شىء من الحزم هذه المرة :

ـ ابق فى حجرتك يا سيِّدى الرئيس .. أرجوك .

ولكن الرئيس أصيب بحالة هستيرية عجيبة ، وهو يلوِّح بذراعيه ، صائحًا :

ـ (بن لادن) .. إنه (بن لادن) مرة أخرى .. هذا الرجل لن يكف ، قبل أن يقضى علىّ .

صاح فيه كبير الحراس فى صرامة :

ـ حجرتك يا سيادة الرئيس .

صرخ فيه غاضبًا :

ـ أنا رئيس الولايات المتحدة الأمريكية .

صاح فيه الرجل ، وهو يدفعه داخل حجرته ، بشىء من الخشونة :

ـ وأنا المسئول عن حمايتك وتأمينك ، فى مثل هذه الظروف .

صاح الرئيس ، قبل أن يغلق قائد الحراسة خلفه باب حجرته :

ـ أريد وزيرة الخارجية .. فورًا .

لم تمض دقائق قليلة ، حتى كانت الوزيرة داخل حجرته ، تقول فى صرامة :

ـ اهدأ يا سيادة الرئيس .. أنت آمن هنا .. لا شىء يمكنه الوصول إلى حجرتك .. اهدأ .

سألها بكل عصبية الدنيا :

ـ ماذا يحدث هنا ؟!.. لقد سمعت انفجارات توحى بنشوب حرب !.. أراهن أن (واشنطون) كلها قد استيقظت ، والرعب يسود الجميع .

غمغمت ، وحاولة إخفاء عصبيتها ، عبر الإشاحة بوجهها :

ـ هذا صحيح .

صاح بها :

ـ إنه هجوم إرهابى .. أليس كذلك ؟!

أجابته بكل صرامة :

ـ كلا .

وبدت شديدة العصبية ، وهى تضيف :

- إنه ذلك المصرى .

اتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يهتف :

- مرة أخرى .

شملهما صمت عجيب يصعب وصفه ، خلال نصف الدقيقة التالية ، قبل أن يهتف فى لهجة ، جمعت بين السخط والغضب والتوتر والخوف :

- ماذا أصابكم ؟!.. قواتنا كلها تعجز عن اقتناص رجل واحد !.. كل ما ننفقه على الأمن لايكفى للإيقاع به ؟!.. تكنولوجيتنا التى نتباهى بها على العالم كله ، تقف عاجزة أمام فرد .

هتفت فى عصبية :

- ليس مجرَّد فرد .

صرخ :

- بل مجرَّد فرد . فرد واحد ، مهما بلغت قوته ومهارته .. فرد نستطيع أن ندفع كل وسائل الأمن لدينا لمطاردته ، بضغطة زر واحدة .

بلغت عصبيتها ذروتها ، وهى تهتف :

- ليس بهذه البساطة .

قال بكل الغضب :

- كيف يا مستشارة الأمن القومى السابقة .. كيف ؟!.. المفترض أننا قادرون على إخضاع أمم بأكملها .

مالت نحوه مكشرة عن أنيابها ، كما لو أنها تهم بافتراسه ، وهى تصرخ فيه :

- إخضاع الأمم أمر مدروس ، يخضع لآلاف العوامل ، وللضعف البشرى بالدرجة الأولى ، ولكن مطاردة رجل واحد ، لايمكنك حتى تحديد هويته ، ليس بالبساطة نفسها .

لوَّح بذراعيه ، هاتفًا :

- هكذا ؟! لن أستبعد إذن أن أجده أمامى هنا .. فى البيت الأبيض !

هتفت بكل الشراسة :

- مستحيل !

نطقتها على نحو مخيف ، قبل أن تستطرد بكل الحدة :

- لقد أشرفت على نظم تأمين المكان بنفسى ، وما من بعوضة يمكنها التسلُّل إليه ، دون أن يتم رصدها ، والتعامل معها ، خلال أقل من دقيقة .

غمغم فى عصبية :

ـ أتعشّم هذا .

تنحنحت فى توتر ، ثم أشارت بيدها ، قائلة :

ـ وهو مستحيل من ناحية أخرى أيضًا .

تطلّع إليها فى لهفة وتساؤل ، فأردفت بمنتهى الحزم :

ـ فهذه الانفجارات التى تسمعها ، تعنى أنه تم القضاء عليه ..

وبدا صوتها شديد القسوة ، وهى تضيف فى حسم :

ـ ونهائيًا .

وعلى الرغم منه ، ارتجف الرئيس الأمريكى ..

فى عنف ..

* * *

على الرغم من تلك الانفجارات الرهيبة ، التى هزّت العاصمة الأمريكية كلها ، وأيقظت سكانها على فزع ما بعده فزع ، إلا أنه من العجيب أن انفجارًا واحدًا منها لم يحدث داخل ذلك المنزل الآمن ..

فمنذ سقطت تلك القنابل اليدوية داخل المكان ، تحوّل (أدهم) و(منى) فجأة إلى شعلة من النشاط ، تتحرك بسرعة البرق ، كما أنهما تدرّبا على هذا طيلة عمرهما ..

لقد تحرّكا فى دقة وسرعة ، وراحا يلتقطان تلك القنابل ، قبل أن تبلغ لحظة الانفجار ، ويلقيانها مرة أخرى عبر النافذة (*) ..

حتى (قدرى) نفسه ، وجد قنبلة تتدحرج تحت قدميه ، فالتقطها ، وقذف بها عبر النافذة ، هاتفًا بكل عصبية :

ـ اذهبى .

وخارج المنزل الآمن ، ووسط صفوف الكوماندوز دوى انفجار ..

وثان ..

وثالث ..

ورابع ..

والمدهش أنها لم تكن انفجارات تلك القنابل اليدوية ..

بل انفجارات أكثر عنفًا وقوة ، وموزّعة على نحو دقيق ومدروس ..

(*) يعتمد انفجار القنابل اليدوية على نوع من التفاعل الكيمائى ، الذى يبدأ فور نزع الفتيل ، ويستغرق عدة ثوان ، قبل حدوث الانفجار ، حماية لمن يلقى القنبلة من انفجارها المباغت .

انفجارات أطاحت بالسيارات ..

والأسلحة ..

ورجال الكوماندوز أنفسهم ..

ثم أطلقت سحبًا رهيبة من الدخان ، غطَّت المنطقة كلها ، وأغرقت الجميع فى نوبة عنيفة من السعال والتهاب الأعين ..

وبكل قوته ، صرخ قائد الكوماندوز :

ـ أقنعة الغاز .. استخدموا أقنعة الغاز .

أطاع الرجال أمره بسرعة ، وقبل أن يعاودوا الهجوم على المنزل ، شاهدوا تلك الأجساد البشرية ، التى تتحرَّك فى خفة ، تحت ستار الدخان ..

أجساد امرأة ورجلين ، أحدهما بدين على نحو مفرط ، يرتج جسده كله مع حركته ..

وكانت تلك الأجساد الثلاثة تندفع نحو سيارة (فان) كبيرة ، انطلقت فور أن دلفوا إليها ..

وصرخ القائد فى غضب :

ـ أطلقوا النار ..

وخلف الفان ، انطلقت آلاف الرصاصات ..

ومع دوى ارتطامها بالسيارة ، بدا من الواضح أن ميزان القوى ينقلب لصالح الأقوى ..

رجال الكوماندوز ..

الأمريكيين ..

★ ★ ★

2- البيت الأبيض ..

« لقد قتلوه » ..

هتف (هشام) بالعبارة ، بكل فزع الدنيا ، وهو يقف فى شرفة مبنى السفارة المصرية ، يتابع تلك الانفجارات الرهيبة ، وهو واثق أنها كلها بسبب رجل واحد ..

رجل المستحيل !

ولكن الملحق العسكرى للسفارة ربُت على كتفه ، قائلاً :

- لا تتسرَّع بالاستنتاج .

أشار (هشام) بيده نحو تلك الانفجارات ، وهو يلتفت إلى الملحق العسكرى ، قائلاً فى مرارة :

- أى استنتاجات ؟!.. ألا تسمع ما يحدث .. هل تتصوَّر أن الأمريكيين يمكن أن يجازفوا بفضيحة أمنية كهذه ، دون أن يظفروا بشىء ؟!

هزَّ الرجل رأسه فى هدوء ، قائلاً :

- كلا بالتأكيد .

هتف به (هشام) :

- إذن ؟!

أجابه فى سرعة وحسم :

- إذن فهم يفعلون كل هذا بأمل الانتصار ، والفوز بمن يسعون خلفه ، أو ما يسعون خلفه .

ثم مال نحوه ، مضيفًا :

- ولكن هذا لا يعنى أن يظفروا به .

فغر (هشام) فاه ، وهو يحدِّق فيه لحظات ، قبل أن يسأله ، فى عصبية لم يستطع السيطرة عليها :

- تبدو واثقًا .. أتخفى شيئًا ؟

اعتدل الرجل ، مجيبًا :

- لست أعلم ما يمكن أن أخفيه ، ولكننى أعرف من هو سيادة العميد (أدهم) بالضبط .

هتف (هشام) بأنفاس مبهورة :

- أتعنى أنه من الممكن أن ...

قاطعه فى حزم :

ـ كم مرة واجهتما أمورًا أشد تعقيدًا ، وأمكنه تجاوزها ؟!

تراجع (هشام) وهو يحدِّق فيه ، مسترجعًا كل ما خاضه مع (أدهم) ، قبل أن يغمغم فى خفوت ، لم يخل من العصبية ، التى لم تفارقه بعد :

ـ أنت على حق .

ثم عاد يلتفت إلى تلك الانفجارات فى صمته ، وكيانه كله يتساءل ..

هل يمكن أن ينجو (أدهم) بالفعل هذه المرة ؟!

هل ؟!..

★ ★ ★

« لا أعتقد هذا .. »

نطقها سير (ويليام) فى حزم شديد ، جعل (جون) يتساءل فى اهتمام ، لم يخل من التوتر :

ـ ولكنها قوات هائلة حسبما وصلنا .. ثلاث فرق كوماندوز كاملة ، وترسانة أسلحة ، و ...

قاطعه (ويليام) فى حسم :

ـ سينجو .

هزَّ (جون) رأسه بعدم اقتناع ، وهو يقول :

ـ هذا يبدو لى مستحيلاً .

رفع (ويليام) سبَّابته أمام وجهه ، قائلاً :

ـ ولهذا أطلقوا عليه ذلك اللقب .

ومال نحو (جون) مستطردًا :

ـ رجل المستحيل .

انتفض (جون) من فرط الغضب ، هاتفًا :

ـ مجرد لقب .

ابتسم (ويليام) ابتسامة مستفزة ، وهو يقول :

ـ أتظن هذا ؟!

استفزَّت الكلمة (جون) فى شدة ، فقال فى تحدٍّ ، على الرغم من أنه يتحدَّث إلى رئيسه :

ـ نعم أظن هذا .

انعقد حاجبا (ويليام) فى شدة وغضب، وهو ينظر إليه، ولكن قبل أن ينطق بحرف واحد، دخل السفير، قائلاً:

- ها هى ذى الأوراق التى طلبتموها.

التفت إليه (ويليام)، والتقط الأوراق فى لهفة وخفة، قائلاً:

- ستفيدنا كثيرًا بالتأكيد.

انتزع (جون) مسدسه من جيبه، قائلاً:

- هذا سيفيدنا أكثر بالتأكيد.

رمقه (ويليام) بنظرة صارمة قاسية، قبل أن يميل نحوه، قائلاً:

- هل تعلم لماذا نواجه كل هذا التعقيد يا (جون)؟!

فرد (جون) قامته، فى محاولة لبث الثقة فى نفسه، وهو يسأل فى حذر لم يدر له سببًا:

- لمـاذا؟!

مال (ويليام) عليه أكثر، مجيبًا:

- لأن العقد انفرط.

بدت دهشة واضحة على وجه (جون)، وأطلّت من عينيه، على نحو يوحى بأنه لم يفهم العبارة، فتابع (ويليام) مفسرًا:

- لقد كانت الخطة تعتمد على تآزرنا معًا .. أربعة أجهزة مخابرات كبرى ومنظمة إجرامية قوية، مع برنامج كمبيوتر شديد التطوّر، ونظم رصد هى الأحدث فى هذا العصر، وخطة دقيقة للغاية، قادرة على محاصرته وتدميره.

وصمت لحظة، وكأنما يرى تأثير حديثه على (جون)، الذى لم تختف حيرته بعد، مما جعل (ويليام) يواصل:

- (دونا كارولينا) كسرت هذا التحالف، والإسرائيليون الذين بدءوا كل شىء، يعملون على نحو غامض، ولا يشاركون حتى فى الأحداث، وكأن لهم هدفًا آخر لم يعلنوه، والجنرال (ماليكوف) لم يعد فى الصورة، والأمريكيون تحركوا وحدهم بمنتهى العنف، ونحن نقف دون تأييد قيادتنا .. باختصار انكسر التحالف وانفرط عقده، وصار كل منا يعمل وحده، فى تيار منفصل، وهذا أكثر ما يفيد ذلك المصرى.

سأله (جون) فى عصبية:

- فيم؟!

ابتسم سير (ويليام)، قائلاً:

- إنه مبدأ أرسيناه نحن ، وعمقنا جذوره فى المنطقة العربية ، من أيام (لورانس)[*] ..

ومال نحوه بشده ، وهو يضيف :

- مبدأ فرّق تسد .

ثم اعتدل ، قائلاً فى حزم :

- فنحن تفرقنا ..

وصمت لحظة ، قبل أن يكمل فى صرامة عصبية :

- وهو سيسود .

وتضاعفت دهشة (جون) ...

ألف مـرة ..

★ ★ ★

اتسعت عينـا (يورى ساندوفيتش) عن آخرهما فى انبهـار ، وهو يقف داخل تلك القاعة الكبيرة ، التى اكتظت بأحدث الأجهـزة العلمية ، التى طلب إحضارها ، منذ ساعات قليلة فحسب ..

(★) (توماس إدوارد لورانس) (1935 - 1888م) : ابن غير شرعى للورد ارستقراطى بريطانى ، ورجل مخابرات فذ ، معروف تاريخيًا باسم (لورانس العرب) ؛ لأنه عاش شطرًا من حياته فى المنطقة العربية ، وتحدث لغتها ، وارتدى جلبابًا وعقالاً ، ليدق المسمار الأخير فى نعش الإمبراطورية العثمانية فى المنطقة العربية ، ويعد أشهر رجل مخابرات بريطانى عرفه التاريخ .

لم يدر كيف استطاع (أبل كوربوف) إحضارها بهذه السرعة ، إلى ذلك المكان البعيد ، ولا كم تكلفت من أموال طائلة ، إلا أنها بدت له أشبه بكنز رهيب ضخم ..

أو كأنه يقف فى مغارة (على بابا) ، ذلك البطل الأسطورى ، الذى وردت حكايته فى روايات (ألف ليلة وليلة) ، عندما عثر على المغارة ، التى تخفى فيها عصابة من اللصوص غنائمها ..

لقد ظل يعمل لأكثر من عشر سنوات ، فى أكبر المعامل الروسية ، الخاصة بأبحاث الفضاء ، دون أن يحلم حتى برؤية تلك الأجهزة ..

فقط كان يقرأ ويسمع عنها ..

أحيانًا ..

« متى تنتهى من إعداده ؟! »

ألقى (كوربوف) سؤاله بمنتهى الصرامة ، على نحو انتزع (ساندوفيتش) من أفكاره فى عنف ، وجعله يرتجف فى شدة ، وهو يلتفت إليه ، قائلاً فى ارتباك وخوف شديدين :

- فور أن أحصل على المعادلة يا سيِّدى .

هتف فيه (كوربوف) فى حدة :

- أى معادلة ؟!

أجابه مرتجفًا :

ـ برنامج تشغيل هذا السلاح ، ما زالت تنقصه معادلة أساسية .. برنامج صغير ، من عدة كيلوبايتات(*) فحسب ، ولكنه الوحيد القادر على فك شفرة التشغيل ، وإطلاق الجهاز .

زمجر (كوربوف) فى غضب شرس ، وهو يقول :

ـ ولماذا لم تخبرنى عن هذا منذ البداية ؟!

أشار (ساندوفيتش) بسبّابته ، قائلاً :

ـ تصوّرتك على علم بهذا أيها الزعيم .

زمجر (كوربوف) مرة أخرى بغضب أكثر ، دون أن يحاول التعليق ..

لم يكن من الممكن أن يعترف أمام (يورى) ، بأنه كان يجهل هذا ..

لم يكن من الممكن أبدًا ..

وفى عصبية بالغة ، سأله :

ـ وكيف يمكننا الحصول على ذلك البرنامج الصغير ؟!

(*) البايت : هو الوحدة الأساسية للكمبيوتر ، ولكنه لا يعمل وحده ، ولكن من خلال قوالب يتكوّن كل منها من ثمانى وحدات ، تحمل كل منها قيمة إما الواحد الصحيح أو الصفر ، ومن هذه القوالب تتكون لغة الكمبيوتر والبرمجة لأى نظام فى العالم ، وتعرف باللغة الثنائية صفر واحد .

لوّح (يورى) بيده ، مجيبًا :

ـ إنه أمر بسيط للغاية .

ثم انخفض صوته ، وهو يضيف :

ـ لو علمنا من وضع البرنامج الأساسى .

انعقد حاجبا (كوربوف) فى غضب عصبى ، وهو يقول :

ـ وكيف يمكننا أن نعلم ؟!

كانت الحيرة ، التى أطلّت فى عينى (يورى) ، هى خير جواب للسؤال ؛ مما جعل (كوربوف) يهتف فى ثورة :

ـ اللعنة !.. إنها (سونيا) .

تساءل (يورى) فى حذر :

ـ (سونيا) ؟!

صاح فيه (كوربوف) فى شراسة :

ـ لا شأن لك بهذا .

قالها ، واندفع نحو باب القاعة ، ولكنه توقّف قبل أن يصل إليه ، والتفت إلى (يورى) ، قائلاً فى صرامة شرسة :

ـ أنجز أنت أعمالك ، وانتظر وصول تلك المعادلة .

أجابه (يورى) فى خضوع :

ـ بالتأكيد أيها الزعيم .. بالتأكيد .

وما إن أغلق (كوربوف) الباب خلفه ، حتى أشاح (يورى) بوجهه ، محاولاً إخفاء تلك الابتسامة ، التى ارتسمت على شفتيه ..

فبالنسبة إليه ، كانت هناك خطة أخرى ..

خطة أكثر شراسة ..

وسيطرة ..

بكثير ..

★ ★ ★

كانت عقارب الساعة تقترب من الخامسة صباحًا ، والخيوط الأولى للفجر تبدأ تسللها من خلف البنايات الشرقية للعاصمة (واشنطن) ، ومشكلة تلك التفجيرات لم تحسم بعد ، وجيش من رجال الصحافة والإعلام يهرع إلى المكان ، عندما ارتفع رنين الهاتف الخاص للرئيس الأمريكى ، الذى كان يجلس بالفعل خلف مكتبه فى تلك اللحظة ، والذى اختطف سمّاعة الهاتف فى سرعة عصبية ، وهو يقول :

ـ ماذا حدث ؟!

أتاه صوت الإسرائيلى (راءول) ، وهو يقول فى شىء من الصرامة :

ـ أريد مقابلة منفردة عاجلة .. وفورًا .

هتف الرئيس الأمريكى فى عصبية :

ـ فى هذه الساعة ؟

أجابه (راءول) فى صرامة أكثر :

ـ ألا تسمع ما يحدث ؟!

تساءلت وزيرة الخارجية ، التى ما زالت داخل مكتب الوزير :

ـ من هذا ؟!

تجاهلها الرئيس عمدًا ، وهو يسأل (راءول) :

ـ ألهذا اللقاء صلة بما يحدث ؟!

أجابه فى صرامة أكبر ، وحزم شديد :

ـ ظننت أن هذا يبدو واضحًا .

كرّرت الوزيرة فى عصبية :

ـ من المتحدّث ؟!

ومرة أخرى تجاهلها الرئيس تمامًا ، وهو يقول :

ـ أنا فى انتظارك .

أنهى المحادثة ، فارتكنت الوزيرة بكفيها على سطح المكتب ، تسأله :

ـ من يطلب المقابلة فى هذه الساعة ؟!

رفع الرئيس عينيه إليها فى عصبية ، وهو يقول :

ـ أبلغى طاقم الأمن أن الدبلوماسى الإسرائيلى دون (راءول) سيأتى بعد قليل .

هتفت مستنكرة :

ـ الإسرائيلى ؟!

فوجئت به يضرب سطح مكتبه براحته فى قوة ، وهو يصرخ بمنتهى العصبية :

ـ نعم ، الإسرائيلى .. لقد سمحت له بالحضور ؛ لأنه يؤكد أن لديه أمرًا عاجلاً ، يتعلق بما يحدث هنا .

صاحت بدورها :

ـ وهل تثق بما يقول ؟!

صرخ ، وعصبيته تتزايد :

ـ نعم ، وسأستقبله ، أيًا كان رأيك ، وأيًا كان موقفك تجاهه .

وعاد يضرب سطح مكتبه براحته ، مضيفًا :

ـ أنا رئيس أقوى دولة فى العالم ، وهذا حقى .

حدّقت فيه لحظات فى دهشة كبيرة ، قبل أن تقول فى حدة :

ـ لا .. ليس حقك .

هتف بمنتهى الاستنكار :

ـ ليس حقى ؟!

أجابته فى لهجة أقرب إلى الشراسة :

ـ بالتأكيد .. أنت تحتل منصب الرئيس ، وهذا يحتم عليك ، وفقًا للنظام الديمقراطى ، ألا تتخذ أية خطوات منفردة ، خاصة فى ظروف أقرب إلى ظروف الحرب والإرهاب كهذه .

احتقن وجهه بشدة ، وظلّ يحدّق فيها بضع لحظات فى غضب هادر ، قبل أن يصرخ :

ـ يا قائد الحراسة .

قبـل أن تنتهى صرختـه ، كـان قائد الحراسـة يدخـل المكتـب ، قائلاً :

ـ أوامرك يا سيادة الرئيس .

أشار إليه الرئيس ، قائلاً فى صرامة :

ـ قُدْ وزيرة الخارجية إلى الخارج .. لقد انتهى لقائى بها .

احتقن وجه الوزيرة ، فتحوّل إلى لون داكن عجيب ، والرئيس يضيف متحديًا ..

ـ وسألتقى بالسيد (راءول) فور وصوله .

بدا كأن هذا الأمر يروق لقائد الحراسة ، الذى عقد كفيه أمامـه ، وهو يقول للوزيرة :

ـ سيِّدتى الوزيرة .

التفتت إليه فى شراسة ، قائلة :

ـ كيف تجرؤ ؟!.. هل نسيت أننى كنت ...

قاطعها فى صرامة ، تفوح منها رائحة شماتة :

ـ كنت يا سيدتى .. كنت .. والآن ، هل سننصرف معًا ، أم علىَّ أن أرسل أحد الجنود ، لاصطحابك إلى الخارج .

ازداد احتقان وجهها ، على نحو زاد من قبحها ، وهى تلتفت إلى الرئيس ، قائلة فى غضب :

ـ بِمَ يهدِّدك الإسرائيليون ؟!

أجابها فى مزيج من الغضب والتوتر والصرامة :

ـ إلى اللقاء أيتها الوزيرة .

لم تكد تخرج مع قائد الحراسة ، حتى ارتفع صوت من جهاز الاتصال الداخلى ، على مكتب الرئيس ، يقول :

ـ السيد (راءول) يطلب الإذن بالدخول يا سيادة الرئيس .

ضغط زر الاتصال ، وقال فى عصبية :

ـ دعه يدخل فورًا .

وجلس خلف مكتبه ، محاولاً التظاهر بالتماسك ، وهو يتساءل فى أعماقه :

ترى ما الأمر العاجل ، الذى جاء بالإسرائيلى فى هذا الوقت .. ما هو ؟!

* * *

مع سيل الرصاصات ، الذى انهمر كالمطر على السيارة (الفان) ، انحرفت السيارة عن مسارها ، وتوقّفت إلى جانب الطريق ، بعد أن ارتطمت بجانب الإفريز ، وارتفعت فوقه ..

وفى ثوان ، كان رجال الكوماندوز الأمريكيين يحيطون بها ، ويصوبون نحوها مدافعهم وصواريخهم فى تحفُّز ، ورجال الإعلام يسرعون لالتقاط كل ما سيحدث ، فى حين هتف قائد الكوماندوز برجاله :

ـ حاصروها ، وأطلقوا النار على الإطارات .

هتف به أحدهم :

ـ إنها سيارة مصفَّحة .. رصاصاتنا لم تخدش حتى سطحها .

صرخ فيه مكررًا :

ـ أطلقوا النار على الإطارات .

انطلقت رصاصاتهم تخترق الإطارات المطاطية السميكة ، قبل أن يهتف أحدهم فى توتر :

ـ إنها إطارات مضادة للرصاص .

وكان على حق تمامًا ..

فإطارات تلك السيارة لم تكن مفرّغة من الداخل ، كإطارات كل السيارات ، سواء الأنبوبية أو غير الأنبوبية ..

كانت إطارات خاصة ، مكوّنة من قطعة مطاطية واحدة سميكة ..

إطارات قد تخترقها الرصاصات ..

ولكنها لا تستطيع أن توقفها .

أبـدًا ..

ولكن رجال الكوماندوز أحاطوا بالسيارة إحاطة السوّار بالمعصم ، وصوّبوا نحوها مدافعهم وصواريخهم ، فى توتر شديد ، فى حين صاح قائدهم بركابها ، عبر مكبِّر صوتى خاص :

ـ أحذركم .. سنستخدم صواريخ مضادة للدروع ، وحتى سيارتكم المصفَّحة ، لن تصمد أمام هذا .

انتبه أحد الرجال إلى أمر لم ينتبه إليه قائده ، فاقترب منه ، قائلاً فى توتر :

ـ سيِّدى .

صاح فيه قائده فى حدة :

ـ اصمت .

ولكن إحدى المذيعات انتبهت إلى الأمر نفسه ، فأسرعت تطلب من حامل الكاميرا التركيز عليه ، وإظهاره فى وضوح ، فى حين بدا كأن باب السيارة الأيسر يفتح ، فاتجهت كل آلات التصوير وعدسات المصورين نحوه ، فى حين تحفَّز رجال الكوماندوز بأسلحتهم ، وتوتر قائدهم بشدة ..

وهبط من السيارة ثلاثة ..

امرأة ورجلان ..

وبكل دهشة الدنيا ، حدَّق قائد الكوماندوز فى الثلاثة ، قبل أن يهتف :

- ولكنكم لستم ...

قاطعه البدين فى غضب :

- لسنا ماذا يا رجل ؟!.. ألا تدرك كم قانونًا اخترقت وتجاوزت ، بما فعلته معنا ؟!

هتفت المذيعة فى حماس :

- أنتم دبلوماسيون ، ولديكم حصانة .. أليس كذلك ؟!

انتبه قائد الكوماندوز ، فى هذه اللحظة فقط ، إلى ما انتبه إليه رجله منذ قليل ، وحاول أن يخبره به ..

انتبه إلى الأرقام الدبلوماسية ، فى مقدِّمة السيارة ..

وبكل توتره ، غمغم :

- ولكنكم كنتم تفرون من المكان .

قالت المرأة فى غضب :

- ماذا تفعل لو أنك فى موضعنا ، ووجدت نفسك فجأة داخل منطقة قتال ، تدوى فيها الانفجارات والرصاصات ، بأكثر مما يحدث فى الحروب العنيفة .

قال فى عصبية :

- السيارة مصفحة .

هتف به الرجل الآخر فى حدة :

- إنها سيارة تنقل السفير وكبار الدبلوماسيين ، فى زمن ساد فيه الإرهاب ، فماذا تتوقَّع ؟!

أُسقِطَ فى يد الرجل ، ولم يدر ماذا يفعل ، وكاميرات الإعلام والصحافة تتابعه على هذا النحو ..

لقد فهم اللعبة جيدًا ..

إنها خطة معدَّة مسبقًا ..

خطة لإثارة أكبر قدر من التوتر والبلبلة ، ثم استغلال هذا لجذب الجميع خلف بدلاء ، لهم سمات جسدية مشابهة ؛ لتتاح الفرصة للآخرين للهروب ، والابتعاد عن المكان .

والمطلوب منه الآن أن يعتذر للدبلوماسيين الثلاثة ، ويبرز موقفه أمام رجال الصحافة والإعلام ..

أو يتحمل الفضيحة ..

وحده ..

فى نفس اللحظة ، التى كان قائد الكوماندوز يبحث فيها عن وسيلة للتبرير ، كان رئيس أقوى دولة فى العالم يستقبل (راءول) فى مكتبه ، وهو يقول فى عصبية :

ـ ماذا تريد هذه المرة أيها الإسرائيلى ؟!

أجابه (راءول) فى هدوء :

ـ أن توقف هذا القتال .

سأله فى دهشة :

ـ أى قتال ؟!

أجابه فى صرامة :

ـ القتال الذى أشعلتموه ، للظفر بذلك المصرى .

تفجرت دهشة عارمة فى كيان الرئيس الأمريكى ، وهو يقول :

ـ ولكنك أنت الذى طلب من قبل أن ...

قاطعه (راءول) فى صرامة شديدة :

ـ قلت : أوقفه .

احتقن وجه الرئيس الأمريكى ، وتملكه غضب شديد ، وهو يقول :

ـ اسمع أيها الإسرائيلى ، لو أنكم تعلمون بما فعلته فى مرحلة شبابى ، فهذا لا يمنحكم الحق فى أن تتعاملوا مع رئيس أقوى دولة فى العالم على هذا النحو .

فوجئ بالإسرائيلى يندفع نحوه ، وينقض عليه ، فقفزت يده إلى زر استدعاء حراسته الخاصة ، وهو يهتف :

ـ كيف ؟..

فوجئ بالرجل يمسك معصمه ، فى قوة شديدة ، جعلته يبتر سؤاله ؛ ليطلق آهة ألم ، قبل أن يقول (راءول) ، فى صوت صارم للغاية :

ـ اصمت واستمع إلىَّ جيدًا ، قبل أن تخسر حياتك نفسها .

واتسعت عينا الرئيس الأمريكى عن آخرهما ، وهو يحدق فى (راءول) ، بكل الرعب والذهول ..

وفجأة ، انتبه إلى ما فاته ..

انتبه إلى الكتفين القويين ، والجسد الممشوق ، وفارق الطول .. والعينين ...

العينين الشبيهتين بعينىْ أسد ..

عينىْ (أدهم) ..

(أدهم صبرى) ..

داخل المكتب البيضاوى ..

مباشرة ..

* * *

« مستحيل !.. »

هتف الكولونيل (سميث) بالكلمة فى دهشة بالغة ، امتزجت بتوتر لا محدود ، فلوّح رئيسه (مولر) بيده ، قائلاً :

ـ هذا ما يحويه آخر تقرير وصلنى منذ لحظات .

هتف (سميث) فى استنكار :

ـ فرّ منهم ؟!.. مرة أخرى فرّ منهم ؟!.. مستحيل !.. لقد حاصروه تمامًا هذه المرة ، وكانت لديهم أوامر بألا يندفعوا خلف أى انفعال طارئ .

تنهّد (مولر) ، قائلاً :

ـ هناك أمور تتفق فيها الطبيعة البشرية ، أيًا كانت هوية صاحبها ، وهناك من يجيد التلاعب بهذه الطبيعة البشرية ، وتوجيهها إلى حيث يريد ، بحيث يدفعك للقيام بما يراه مناسبًا له ، وأنت تتصوّر أنك تفعله لصالحك أنت ..

سأله (سميث) فى عصبية :

ـ أهذا ما حدث ؟!

أومأ برأسه ، مجيبًا :

ـ بالضبط .

احتقن وجه (سميث) ، وهو يدور فى المكان فى عصبية شديدة ، غير مصدّق لما سمعه ..

أى رجل هذا ؟!..

دولة كاملة تسعى خلفه ، مع ثلاثة أجهزة مخابرات أخرى ، ومنظمة إجرامية كاملة ، ولا أحد يستطيع الظفر به !!..

هذا مستحيل عمليًا أو حتى نظريًا !!..

مستحيل تمامًا !..

لقد قرأ ملف (أدهم) كله ، أكثر من عشر مرات ، ولكنه لم يتخيَّل أنه بهذه البراعة أبدًا ..

أبدًا ..

أبدًا ..

كان كيانه كله يرتجف ، من فرط الانفعال ، عندما انطلق رنين هاتف (مولر) فجأة ، فانتفض فى عنف ، وهو يهتف :

ـ ماذا هناك ؟!

التقط (مولر) سمَّاعة هاتفه ، وهو يقول له فى صرامة :

ـ اهدأ .

تطلَّع إليه (سميث) فى توتر بالغ ، فى حين تحدَّث (مولر) عبر الهاتف ، قائلاً فى حزم :

ـ أنت قائد حراسة السيِّد الرئيس !.. بم يمكننى أن أخدمك .

جذبت هذه العبارة انتباه واهتمام (سميث) فى شدة ، حين اعتدل (مولر) بحركة شديدة التوتر ، وهو يسأل قائد الحراسة فى قلق بالغ :

ـ وما الذى أثار شكوكك إلى هذا الحد ؟!

أجابه قائد الحراسة عبر الهاتف :

ـ كاميرات المتابعة متوقفة ، منذ بدأ لقاء الرئيس بذلك الإسرائيلى ، الذى حذرتنى وزيرة الخارجية منه ، ولقد سمعت ما بدا لى أشبه بالتأوهات من الداخل ، ولكننى أحتاج إلى أوامر ، لأقتحم مكتب الرئيس ، بعد أن أغلق هو جهاز الاتصال الداخلى عمدًا ، ولقد تصوَّرت أنكم الجهة ، التى يمكنها منحى مثل هذه الأوامر .

اتسعت عينا (مولر) ، على نحو جعل (سميث) يسأله فى توتر :

ـ ماذا هناك ؟

رفع (مولر) عينيه إليه ، قائلاً فى ذهول :

ـ لقد جرؤ .

هتف به (سميث) :

ـ جرؤ على ماذا ؟!.. ومن هو ؟!

كتم (مولر) سمَّاعة الهاتف بيده ، وهو يجيب فى عصبية :

ـ ذلك الرجل .. إنه فى مكتب الرئيس .

اتسعت عينا (سميث) ، وهو يقول بكل ذهول الدنيا :

ـ ماذا ؟!

ثم استدار دون مناقشة ، واندفع خارج المكتب ، فى حين عـاد (مولر) إلى الهاتف ، وقال لقائد الحراسة ، بكل صرامة الدنيا :

ـ افعلها يا رجل .. افعلها .

سأله قائد الحراسة فى لهفة :

ـ وماذا لو كانت شكوكى صحيحة ؟!

اعتدل (مولر) على مكتبه ، وقال بلهجة آمرة صارمة :

ـ أطلق النار فورًا يا رجل .. هل سمعتنى .. فورًا ؟!

وأنهى المحادثة ، وعيناه تلتمعان ..

فى شدة .

★ ★ ★

3ـ أرض المعركة ..

مطَّ الجنرال (ماليكوف) شفتيه فى غضب وسخط شديدين ، وهو يراجع ذلك التقرير ، الذى قدَّمه له رجله (فيدور) ، وقال فى حدة :

ـ ما الذى يعنيه هذا بالضبط ؟!.. (أبـل كوربوف) ابتـاع معدات وأجهزة علمية بأكثر من مليون دولار ، ونقلها على أسطول مـن الطائرات الخاصة إلى جهـة مجهولة !!.. أى تقرير سخيف هذا ، تقدِّمه جهة ، يفترض فيها أقوى سلاح معلومات فى الدولة ؟!

أجابه (فيدور) فى توتر :

ـ هذا كل ما أمكنهم التوصُّل إليه يا سيِّدى ، فرجال (كوربوف) كانوا يتحركون فى شراسة شديدة ، ويحـاصرون كل منطقـة يتم الشراء منها ، ولقد دفعوا ضعف الثمن الفعلى لتلك الأجهزة ، مقـابل الحصول عليها فورًا .

ألقى (ماليكوف) التقرير فى وجهه ، هاتفًا :

ـ نتحدَّث عن أجهزة ومعدات فى حجم أسطول من السيارات ، وتقول : إنه تم نقلها دون أن نستطيع تتبُّعها .

قال (فيدور) ، وتوتره يتزايد :

- لقد نقلوها إلى سيارات نقل خاصة ، انطلقت بهم إلى ضيعته ، المحاطة بالأسوار السميكة ، وأجهزة المراقبة ، ثم فوجئنا بالطائرات تنطلق من هناك .

وارتبك فى شدة ، وهو يقول :

- لم نكن نعرف حتى إنه يمتلك مطارًا خاصًا هناك .. فى قلب ضيعته .

صرخ فيه (ماليكوف) :

- لم تكونوا تعرفون ؟!.. أهذا ما يمكن أن يقوله ماجور فى المخابرات الروسية ؟!.. لا تعرفون ؟!.. ما وظيفتكم إذن ؟!.. بل ما فائدتكم ؟!.. أى جهاز مخابرات فى العالم يعتمد على المعلومات ، فكيف يكون عذره هو أنه لا يمتلك معلومات ؟!

غمغم فى ارتباك متضاعف :

- إننا نبذل قصارى جهدنا .

ضرب سطح مكتبه بقبضته ، صارخًا :

- من الواضح أن هذا لا يكفى .

لم يحر (فيدور) جوابًا ، عند هذه النقطة ، ووقف صامتًا محبطًا ، لا يجرؤ على الكلام ، فى حين غادر الجنرال مكتبه ، ودار حوله فى عصبية ، وهو يقول :

- كل هذا يؤكد ما لدىَّ من معلومات .. هناك سلاح بالغ الخطورة ، يتم إعداده فى مكان ما هنا .. مكان مجهول فى (سيبيريا) ..

صمت لحظات فى توتر ملحوظ ، قبل أن يلتفت إلى (فيدور) ، متسائلاً فى حدة :

- ألم يعد (بولانسكى) بعد ؟!

هزَّ (فيدور) رأسه ، وانخفض صوته ، وهو يغمغم فى حذر :

- لست أظنه يعود .

كان (ماليكوف) واثقًا من هذا الجواب مسبقًا ، وعلى الرغم من ذلك فقد انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يقول فى عصبية :

- من يدرى ؟!

ظلَّ صامتًا يفكِّر لحظات ، وكل خلجة من خلجاته توحى بالتوتر الشديد ، قبل أن ينهض إلى مكتبه مرة أخرى ، ويقول وكأنه يحدِّث (فيدور) :

- هذا أمر لا يمكن السكوت عليه .. أليس كذلك ؟!

تردَّد (فيدور) ، وهو يقول :

- أعتقد أن ...

بتر عبارته ، عندما انتبه إلى أن الجنرال لا يسمعه ، وأنه إنما ألقى السؤال على نفسه وليس عليه ..

ففى تركيز شديد ، جلس الجنرال يحدّق فى ذلك الهاتف الخاص على سطح مكتبه ، والذى يوصله بالرئيس الروسى مباشرة ، قبل أن يحسم أمره ، ويلتقط سمّاعة الهاتف ، وهو ينقر بأصابعه على سطح المكتب ، فى عصبية شديدة ، ولم يكد يسمع صوت الرئيس ، حتى قال فى توتر :

ـ سيادة الرئيس .. لدىّ أمر عاجل للغاية ، وشديد الخطورة إلى أقصى حد ، ويحتاج إلى أن ألتقى بك على وجه السرعة .

لم يعرف (فيدور) ما قاله الرئيس بالضبط ، ولكنه سمع الجنرال يزمجر ، قبل أن يقول فى توتر بالغ :

ـ بل على أقصى وجه للسرعة يا سيادة الرئيس .. معذرة ، ولكنك رجل مخابرات سابق ، وتدرك جيدًا ما يمكن أن يعنيه هذا القول .

مرة أخرى لم يسمع (فيدور) حديث الرئيس ، ولكن قشعريرة عجيبة سرت فى جسده ، عندما سمع الجنرال يقول فى صرامة :

ـ بل أقصى من هذا يا سيادة الرئيس .. إنه أشبه بالحرب .. نعم ، قد نحتاج إلى تدخل المدرعات والدبابات .. بل ربما سلاح الطيران أيضًا .. إنه ليس حتى مصير (روسيا) وحدها ، بل قد يكون مصير العالم .. العالم أجمع .

ومرة أخرى ، ومع العبارة الأخيرة ، سرت القشعريرة نفسها فى كيان (فيدور) كله ..

وعلى نحو أكثر عنفًا ..

* * *

لا يمكننا أبدًا أن نطلق على ما أصاب الرئيس الأمريكى داخل مكتبه اسم الذهول ..

الواقع أنه كان شيئًا يفوق كل هذا كثيرًا ..

فما تصوّر أنه مستحيل ، وما أكّدته له مستشارته السابقة للأمن القومى ، والتى أشرفت بنفسها على تأمين البيت الأبيض ،

قد أصبح حقيقة واقعية أمام عينيه ، اللتين اتسعتا على نحو عجيب ، حتى بدا أشبه برسم من الرسوم الهزلية المتحركة ، منه برئيس أقوى دولة فى العالم ..

لقد أطفأ كل وسائل الأمن ، عندما استقبل من ظن أنه (راءول) ، حتى لا تصبح هناك أية وثيقة على ما يتحدثان فيه ، وها هو ذا الآن وحده ، داخل مكتبه المؤمن ، فى مواجهة أكثر من هزّ الكيان الأمريكى كله ..

أمام (أدهم) .. (أدهم صبرى) ..

« إنك لن تقتلنى .. ملفك يقول : إنك لا تقتل .. »

قالها الرئيس بصوت ارتجف كل حرف من حروفه ، فقال (أدهم) بكل الصرامة :

ـ إن لم تضطرنى لهذا .

حدَّق الرئيس فى عينيه الشبيهتين بعينىِ الأسد ، قبل أن يسأله بصوت مختنق :

ـ ماذا تريد منى ؟!

ـ لقد أخبرتك ماذا أريد .

هزَّ رأسه هاتفًا بصوت منهار :

ـ لايمكننى أن أصدر أمرًا بوقف مطاردتك .. لايمكنك أن تتصوَّر ماذا يمكن أن يحدث عندئذ .

مال (أدهم) نحوه أكثر ، وهو يقول :

ـ سيكشفون فضيحتك الدراسية .. أليس كذلك ؟!

بدا كأن اتساع عينىِ الرئيس قد التهم وجهه كله ، وهو يقول :

ـ هل تعرف بأمرها ؟!

أجابه (أدهم) فى بطء :

ـ بكل لحظة منها .

ثم أضاف بلهجة مخيفة :

ـ ونمتلك الدليل أيضًا .

زاغت عينا الرئيس ، ودارتا فى محجريهما ، وهو يقول :

ـ كيف ؟!.. كيف نجحت فى الوصول إلى هنا ؟!

أجابه (أدهم) فى صرامة :

ـ أنت دعوتنى للقدوم ، ورجالك تأكَّدوا من أننى لا أحمل سلاحًا ، ولكنهم لم يحاولوا استخدام ذلك الجهاز السخيف ، للتأكُّد من ملامحى ؛ فقط لأنك أخبرتهم أنك تنتظرنى .

ارتجف صوت الرئيس ، وهو يقول :

ـ ولكن وجه (راءول) .

ارتسمت ابتسامة ساخرة ، على ركن شفتىْ (أدهم) ، وهو يقول ، دون أن يفقد صرامته :

ـ لقد أفقدت هذا الحقير وعيه هناك ، فى قلب سفارته ، وكان لدىَّ الوقت الكافى لأصنع قناعًا يماثل وجهه القبيح .

بدا الرئيس الأمريكى ـ الذى يتباهى بقوة بلاده ـ أقرب إلى الانهيار ، وهو يقول فى خفوت شديد :

ـ مستشارة الأمن القومى أخبرتنى أنك لقيت مصرعك .

ابتسم (أدهم) تلك الابتسامة الساخرة مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ أتقصد مستشارتك السابقة ؟!.. وهل صدقتها ، بعدما حدث هناك فى (العراق) ؟!

كان الرئيس يهم بقول شىء ما ، عندما اعتدل (أدهم) فجأة ، وأرهف سمعه فى شدة ، ثم قال فجأة فى صرامة شديدة :

ـ كن طبيعيًا .

ثم دفعه إلى مقعده ، مضيفًا بلهجة قاسية :

ـ وإلا .

قبل حتى أن ينطق كلمته الأخيرة ، اقتحم قائد الحراسة مكتب الرئيس ..

مع كل رجاله وكل أسلحتهم ..

بلا استثناء ..

* * *

لم يكد السيِّد (حسن) يصل إلى مطار (واشنطن) ، فى الدقائق الأولى من الفجر ، بجواز سفره الدبلوماسى ، وأوراقه التى تشير إلى أنه فى مهمة دبلوماسية عاجلة ، وتطالب الجميع بتسهيل حركته ، حتى أنهى إجراءات وصوله فى لحظات ، واستقبله أحد رجال المخابرات من مكتب (واشنطن) خارج المطار ، والتقط منه حقيبته الوحيدة ، والسيِّد (حسن) يسأله فى هدوء :

ـ كيف سارت الأمور ؟!

حمل صوت رجل المخابرات رنة فخر وتقدير ، وهو يجيب :

ـ كما خططت لها تمامًا يا سيِّدى .. حفيدك مستقر لدينا فى مبنى السفارة ، وتم استخراج جواز سفر دبلوماسى له ، بناءً على أوامر (القاهرة) ، وسيسافر بإذن الله (سبحانه وتعالى) على متن طائرة التاسعة صباحًا ؛ ليصل عبر (أوروبا) إلى (القاهرة) مساء اليوم نفسه ، بتوقيت (مصر) .

غمغم (حسن) :

ـ حمدًا لله .

ثم تساءل فى اهتمام بالغ :

ـ وماذا عن الباقين ؟!

أجابه الرجل ، وهو يضع الحقيبة فى السيارة :

- خطتك أثمرت جيدًا ، وانشغل رجال الكوماندوز بالفريق البديل الذى أرسلناه ، ووجد سيادة العميد ، والمقدّم (منى) والسيد (قدرى) الفرصة للخروج وتجاوز الموقف فى أمان .

سأله (حسن) ، وهو يدلف إلى السيارة :

- وأين هم الآن ؟!

صمت الرجل لحظات ، ثم انطلق بالسيارة ، وهو يجيب :

- لا أحد يدرى .

هتف (حسن) مستنكرًا :

- لا أحد ماذا ؟!

أجابه الرجل فى سرعة :

- هذا ما أصرّ عليه سيادة العميد (أدهم) يا سيّدى ؛ فهو يؤمن بأنه كلما قل عدد من يعرفون التفاصيل ، تزداد نسبة الأمان .

انعقد حاجبا (حسن) ، وهو يقول :

- هذا صحيح .

صمت لحظات مفكرًا فى عمق ، واحترم رجل المخابرات صمته ، فلاذ بالصمت التام طويلاً ، حتى اعتدل (حسن) ، والهجوم مازالت تملأ وجهه ، وقال فى حسم :

- أريد قائمة بمطارات التدريب الخاصة حول (واشنطن) ، وأرسل من يستأجر طائرة صغيرة ، بأوراق تخص هوية فرنسية أو بريطانية .

لم يحاول الرجل سؤاله عن هدفه من هذا ، وفقًا لقاعدة المخابرات الذهبية : المعرفة قدر الحاجة ، وإنما اكتفى بأن يقول :

- فورًا يا سيّدى .

التقط (حسن) نفسًا عميقًا وهو يقول :

- لا بد أن نكون مستعدين .. طوال الوقت .

ومرة أخرى ، لم يحاول الرجل سؤاله ..

فقط انطلق بالسيارة نحو السفارة المصرية ..

مباشرة ..

★ ★ ★

عندما اقتحم قائد الحراسة ورجاله مكتب الرئيس الأمريكى ، كان هذا الأخير يجلس خلف مكتبه ، و(أدهم) فى هيئة (راءول) ، يقف أمامه هادئًا ، عاقدًا كفيه خلف ظهره ..

ومع انزعاجه الواضح ، بدا انفعال الرئيس طبيعيًا ، وهو يهتف فى وجه قائد الحراسة فى حدة :

- ماذا تفعل يا رجل ؟!

هتف قائد الحراسة ، وهو يصوّب سلاحه نحو (أدهم) :

- هذا الرجل .

التفت إليه (أدهم) فى هدوء صارم ، وتحدٍ واضح ، والرئيس يهتف بنفس الحدة :

ـ ماذا عنه ؟!

أضاف (أدهم) فى صرامة متحدية :

ـ نعم ؟ ماذا عنه ؟!

التفت إليه الرئيس بحركة حادة ، ثم عاد يلتفت إلى قائد الحراسة ، وفى رأسه تشتعل أفكار متعارضة ..

إنه رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، وداخل مكتبه البيضاوى فى البيت الأبيض ، وهذا الذى يقف بالباب قائد حراسة ، ومعه طاقمه كله ، مدججين بالسلاح ، وأمامه ذلك المصرى ، الذى تسعى قواته كلها خلفه ..

وبإشارة واحدة من يده ، سينقض الجميع عليه ..

ومهما كانت قوته ومهارته ، فلن يمكنه الصمود أمام كل هذا العدد ..

سيسقط فى أيديهم حتمًا ..

وتنتهى المشكلة ..

أو تبدأ ..

فالرجل يمكن أن يفضح قصته القديمة ..

وبالأدلة ..

وهذا عيب النظام الديمقراطى ..

الفضيحة ستنتشر فى كل الصحف ، وستتناولها أقلام الصحفيين والكتاب ، وسيمزقه المجتمع إربًا ..

دون رحمة ..

أو شفقة ..

أو هوادة ..

وحتمًا سيجبرونه على الاستقالة ..

وتنتهى حياته السياسية بفضيحة ، تلازمه طيلة ما تبقى له من العمر ..

إلا إذا ؟!

« سيدى الرئيس .. »

قالها قائد الحراسة فى ترقُّب متوتر ، وكأنه ينتظر أوامره ، فالتفت إليه الرئيس ، وقد حسم أمره ، وهتف فجأة :

ـ أطلقوا النار .

ودوت الرصاصات ..

فى البيت الأبيض ..

★ ★ ★

بكل توتر الدنيا ، راح (كوربوف) يتحرّك فى مكتبه الخاص ، ومساعده (جوركى) يتابعه فى صمت ، دون أن يجرؤ على التفوه بحرف واحد ، حتى توقّف (كوربوف) فجأة ، وهتف فى سخط :

ـ كيف ؟!

تساءل (جوركى) فى حذر :

ـ كيف ماذا أيها الزعيم ؟!

صاح به :

ـ كيف يمكن الوصول إلى تلك المعادلة الناقصة ؟!.. ذلك البرنامج الصغير ، الذى ينقض ؛ لتشغيل هذا السلاح .. كيف ؟!

بدت الحيرة على وجه (جوركى) ، وهو يقول فى حذر :

ـ يمكننا اختطاف أحد العاملين عليها ، وإجباره على البوح بمكانها .

سأله فى حدة :

ـ ومن العاملين عليها أيها العبقرى ؟!

تراجع (جوركى) خطوة ، وارتبك فى شدة ، وهو يغمغم :

ـ ومن أدرانى ؟!

كان (كوربوف) يهمّ بالانفجار فى وجهه ، عندما دلف أحد رجاله إلى المكان ، قائلاً فى خشونة تلقائية :

ـ ذلك العالم يطلب مقابلتك على وجه السرعة أيها الزعيم .

سأله (كوربوف) فى حدة :

ـ ماذا يريد ؟!

ظهر (يورى) من خلفه ، يقول فى انفعال :

ـ توصلت إلى طريقة .

سأله (كوربوف) بكل اللهفة :

ـ لتشغيل الجهاز ؟!

لوّح (يورى) بيده ، قائلاً :

ـ بل للحصول على المعادلة الناقصة ..

اعتدل (جوركى) فى وقفته بحركة حادة ، فى حين هتف (كوربوف) فى لهفة أكثر وانفعال أكبر :

ـ كيف ؟!

تجاوز (يورى) ذلك الرجل الخشن ، وهو يقول فى حماس :

ـ من الباب الخلفى .

بدا من الواضح أن أحدًا لم يفهم عبارته ؛ لذا فقد تابع (يورى) :

ـ كل عالم ، عندما يصممُ برنامجًا ما ، يضيف إليه بابًا خلفيًا .. لمحة ما ، يمكنه من خلالها دخول البرنامج ، مهما تمت حمايته وتأمينه .

سأله (كوربوف) فى عصبية :

ـ وبِمَ يفيدنا هذا ؟!

مال (يورى) نحوه ، وابتسم فى ثقة خبيثة ، وهو يقول :

ـ لقد توصلْت إلى ذلك الباب الخلفى .

لم يفهم (كوربوف) هذا أيضًا ، فقال فى حذر متوتر :

ـ أسيساعدك هذا على تجاوز تلك المعادلة الناقصة ؟!

هزّ (يورى) رأسه نفيًا ، وهو يجيب :

ـ كلاّ .

انعقد حاجبا (كوربوف) فى غضب ، ولكن (يورى) استدرك فى سرعة :

ـ ولكننى عرفت من يملكها .

ارتفع حاجبا (كوربوف) ، وعيناه تتألّقان فى لهفة ، فتابع (يورى) فى حسم وحماس :

ـ لقد وضع توقيعه على برنامجه ، وأضاف رمزًا خاصًا ، سبق لى أن تعاملت معه ، وأعرف صاحبه جيدًا .

سأله (جوركى) هذه المرة ، وهو يستل مسدسه ، على نحو لم يناسب أى شق من الموقف :

ـ ومن هو ؟!

اعتدل (يورى) ، وتألّقت عيناه وهو يجيب :

ـ (إيفان) .. (إيفان توركنيف) .

وتألقت عينا (كوربوف) فى شدة ..

لقد صارت السيطرة على العالم قاب قوسين ..

أو أدنى ..

* * *

« لايمكننا أن نضيع لحظة واحدة .. »

قالها (راعول) فى منتهى التوتر ، وهو يتحدث إلى رئيسه ، عبر شاشة الاتصال الخاصة فى السفارة ، فقال رئيسه فى غضب :

- حماقتك أضاعت أكثر مما يمكن أن نفقد .

قال (راعول) فى عصبية :

- وما الخطأ الذى ارتكبته .. ذلك الشيطان كان يحفظ تخطيط مبنى سفارتنا عن ظهر قلب كما قال ، وحتى هذه اللحظة مازال طاقم أمننا يحاول معرفة كيف دخل إلى هنا ، متجاوزًا كل وسائل التأمين ، التقليدية والإلكترونية .

قال رئيسه فى حدة :

- ولكنه دخل ، وعرف كل مانعرفه .

أجابه (راعول) ، فى صرامة عصبية :

- لهذا لاينبغى أن نضيع لحظة واحدة .. لابد أن أنطلق فورًا .

سأله فى حدة :

- إلى أين ؟!

اعتدل (راعول) ، وهو يقول فى حزم :

- (سيبيريا) .

سأله رئيسه فى توتر :

- ألم تحسم تفاوضاتك مع ذلك الوغد (كولون) ؟!

أجابه فى توتر :

- (كوربوف) .. اسمه الجديد (كوربوف) ، وربما كان وغدًا بحق ، ولكنه مازال يضع يده على أقوى سلاح على الأرض .. السلاح القادر على دفعنا إلى قمة العالم .. السلاح الذى نستطيع بوساطته سحق العرب جميعهم ، وامتلاك المنطقة .. بل الأرض كلها .

ثم انعقد حاجباه بمنتهى الصرامة والحزم ، مضيفًا :

- ولابد أن أحسم الأمور معه ، قبل أن يسقط السلاح فى يد أخرى .

غمغم رئيسه فى عصبية :

- يد أخرى ؟!

أجابه فى شىء من الصرامة ، لايتفق مع فارق الرتب بينهما :

- نعم ، يد (سونيا) .. (سونيا جراهام) .

ومع سماعه الاسم ، لم يملك رئيسه أن يمنـع تلك القشـعريرة الباردة ، التى سرت فى جسده ..

فى كل ذرة منه ..

فلو امتلكت (سونيا) ذلك السلاح ، فستكون لحظة النهاية ..

نهاية العالم ..

كلـه .

★ ★ ★

4ـ المستحيل ..

التمعت عينا (سونيا جراهام) على نحو عجيب ، وهى تتطلّع إلى الجليد المحيط بها من كل جانب ، مـع هبوط طـائرة (كارولينا) الخاصة فى ذلك المطار السرى ، فى طرف (موسكو) البعيد ..

لقد نجحت الخطة ، حتى هذه اللحظة ..

سلطة ونفوذ واتصالات (دونا كارولينا) ، ساعدتها على تجاوز كل التعقيدات الأمنية ، والفرار من الولايـات المتحـدة الأمريكيـة ، تحت جنح الظلام .

الرشوة الهائلة التى دفعتها ، جعلت كل شىء يسير على ما يرام ..

وها هى ذى هنا ..

فى (روسيا) ..

أرض المعركة الرئيسية ..

(روسيا) ، حيث وكرها السرى ، الذى قضت ثلاث سنوات كاملة لإنشـائه ، الـذى يحـوى سـلاحها ، الـذى تجشّمت الكثير والكثير للفوز به ..

دماء غزيرة أراقتها ..

أموال طائلة أنفقتها ..

ذمم عديدة اشترتها ..

تنظيمات كثيرة حطمتها ..

ثم حصلت عليه ..

امتلكت السلاح ، الذى ابتكرته قريحة علماء روس وأمريكيين وبريطانيين ، ويابانيين وغيرهم ..

بوساطته ستسيطر على العالم ..

العالم كله ..

« وصلنا يا زعيمتى .. »

قالتها (تيا) فى لهجة تحمل نبرة خبيثة ، جعلت (سونيا) تقطع أفكارها ، وتلتفت إليها فى برود ، قائلة :

ـ نعم .. وصلنا .

ابتسمت (تيا) ابتسامة غير ذات معنى ، وهى تقول :

ـ هذا يذكرنى بالأيام الخوالى .

رمقتها (سونيا) بنظرة نارية ، قائلة :

ـ حقـًا ؟!

تجاوزت (تيا) فحوى الكلمة ومغزاها ، وهى تقول :

ـ أما زلت تحتفظين بخطتك فى أعماقك ؟!

أشاحت (سونيا) بوجهها ، وهى تقول :

ـ هذا يضمن السرية التامة .

قالت (تيا) فى خبث :

ـ وربما الفشل .

استدارت إليها (سونيا) فى حركة حادة مفاجئة ، حتى إن (تيا) الحسناء أخِذتْ على حين غـرة ، لتفاجأ بأصـابع (سونيا) حـول عنقها ، وتلك الأخيرة تقول فى شراسة شديدة :

ـ لو تحدثْت مرة أخرى عن الفشل ، ستكون آخر مرة تتحدثين فيها على الإطلاق .

كانت (تيا) تستطيع فى بساطة ، ومع مهارتها القتالية العالية ، أن تحطِّم يد (سونيا) فى لحظة واحدة ، إلا أنها حتى لم تحاول هذا ، وهى تقول بصوت مختنق :

ـ لن أفعل .

ظلَّت (سونيا) ترمقها بنظرة نارية غاضبة لحظات ، قبل أن ترخى أصابعها على عنقها ، وهى تقول :

- حسنًا تفعلين .

تنفست (تيا) الصعداء ؛ لأنها لم تضطر للدخول فى قتال مع (سونيا) ، وغمغمت :

- هل سنبدأ فور الوصول ؟!

أجابتها (سونيا) فى صرامة :

- بل سنذهب أولًا للحصول على ما ينقصنا .

سألتها (تيا) فى حذر :

- وماذا ينقصنا ؟!

أجابتها فى اقتضاب صارم :

- معادلة .

لم تفهم (تيا) ما يعنيه هذا ..

ولم تحاول أن تسأل ..

أبدًا ..

* * *

مشكلة كل من تعاملوا مع (أدهم) ، عبر تاريخه الطويل ، هى أنهم اعتمدوا دومًا على فارق القوة ..

والقوة وحدها ..

كلهم واجهوه بأعداد كبيرة ، وأسلحة عظيمة ، وذخائر مخيفة ..

ولم يهزمه أحدهم بهذا ..

قط ..

ربما لأن كل هذا لا يخيف (أدهم) ..

لا يزعزع أعصابه ..

أو يشل تفكيره ..

أو حركته ..

فبمجرَّد أن صرخ الرئيس بعبارته ، وقبل حتى أن يضغط الرجال أزندة أسلحتهم ، تحرَّك هو ..

وثب وثبة مدهشة ، تليق بفهد مصرى أصيل ، وتجاوز المسافة التى تفصله عن مكتب الرئيس ، حتى قبل أن تنطلق الرصاصات ، التى ضلت طريقها فى الهواء ، فى نفس اللحظة التى هبط هو فيها بقدمه فوق سطح المكتب ، ثم انزلق عنه فى خفة مدهشة ، ليدور حول الرئيس ، ويحيط عنقه بذراعه ، ثم يختطف قلمه من على سطح المكتب ، ويدفع سِنَّهُ الذهبىَّ نحو عنقه ..

وبسرعة ، دارت فوهات الأسلحة نحوه ، و ...

« توقفوا .. »

صرخ بها الرئيس وقائد حراسه فى آن واحد ..

الأول نطقها بفزع رهيب ، والثانى بلهجة آمرة قوية ..

وتجمَّدت أصابع الرجال على أزندة أسلحتهم ..

من المستحيل أن يواصلوا إطلاق النار ، فى هذا الموقف !!..

من المستحيل تمامًا أن يجازفوا بسلامة الرئيس ..

رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ..

وتجمَّد الموقف لحظة ، والجميع عاجز عن اتخاذ قرار ما حتى قال (أدهم) بكل صرامة الدنيا :

ـ ألقوا أسلحتكم .

قال قائد الحراسة فى عصبية :

ـ هل تتصورَّ أن نطيع أمرًا كهذا ؟!

أجابه (أدهم) فى سخرية ، وهو يعتصر عنق الرئيس ، الذى احتقن وجهه ، واكتسى بذعر هائل :

ـ بل أتصورَّ أن تتركونى أحطِّم عنق رئيسكم .

هتف الرئيس بصوت مختنق :

ـ أطيعوه .

همَّ رجال الحراسة بإلقاء أسلحتهم ، ولكن قائدهم أشار إليهم بالاحتفاظ بها ، وهو يقول فى حدة :

ـ لن تجرؤ .

هتف (أدهم) فى سخرية شديدة :

ـ حقًا ؟!..

وانعقد حاجبا قائد الحراسة فى شدة وتوتر .

يا له من قول أحمق ، ذلك الذى نطق به !!..

لن يجرؤ ؟!..

إنه يقف أمام الرجل الوحيد فى العالم ، الذى جرؤ على دخول البيت الأبيض عنوة ..

ونجح فى هذا ..

يقف أمام رجل يمكنه أن يجرؤ على فعل أى شىء ..

وكل شىء ..

ثم إنها مسألة حياة أو موت ..

حياته ..

وهو شخصيًا ، لو أنه فى مكانه ، لما تردَّد عن فعل أى شىء ..

أى شىء على الإطلاق ..

« وكيف تتوقَّع أن تخرج من هنا ؟!.. »

ألقى قائد الحراسة ذلك السؤال فى عصبية ، حاول أن يدس فيها شيئًا من الصرامة ، ولكن توتره الشديدة أعجزه عن هذا ، وجعل صوته يخرج مرتجفًا ، مما زاد من عصبيته ، و(أدهم) يجيبه ، بتلك اللهجة الساخرة المستفزة :

- تمامًا كما دخلت .

ثم أردف بكل صرامة الدنيا :

- والآن ، ألقوا أسلحتكم .

فى هذه المرة ، لم ينتظر طاقم الحراسة أوامر قائده ، وألقى جميع أفراده أسلحتهم على الفور ، فى حين غمغم الرئيس بصوت يختنق :

- لقد فعلوها ، أفلت عنقى .

سأله (أدهم) فى صرامة :

- هل ستستمع إلىَّ جيدًا ، حتى أكمل شرح ما بدأته .

هتف الرئيس :

- أعدك .

أفلت (أدهم) عنقه قليلاً ، فالتقط الرئيس نفسًا عميقًا ، وشهق فى قوة ، وكأنما لايتصورَّ أنه قد نجا من هذا الشيطان المصرى ، وغمغم قائد الحراسة ، فى عصبية أكثر :

- ما زلت أشك فى إمكانية خروجك من هنا .

التفت إليه (أدهم) ، قائلاً :

- ستؤدى لى التحية ، وأنا أغادر بيتكم الأبيض .

هتف الرجل فى حدة :

- أتحداك .

قال (أدهم) بمنتهى الصرامة :

- ستؤديها .

ثم مال نحو الرئيس ، مستطردًا :

- الواقع أننى هنا لصالح (أمريكا) .

التفت إليه الرئيس فى دهشة مستنكرة ، وبدا استنكار واضح على قائد حراسه ، ولكن (أدهم) أفلت عنق الرئيس تمامًا ، وسحب القلم ذى السن الذهبية بعيدًا ، وهو يعتدل ، قائلاً :

ـ وأقسم على هذا بشرفى .

ألقى عبارته الأخيرة ، فساد المكتب البيضاوى كله صمت رهيب ..

وتعلّقت العيون كلها بالرجل ..

رجل المستحيل ..

هل تعنى هذه العبارة شيئًا ؟!..

هل يعنى الشرف ما ينبغى أن يعنيه ، عند رجل مثله ؟!..

هل ؟!

وعلى الرغم من أن جميع من بالحجرة يعتبرونه عدوًا ، فقد وقر فى نفوسهم ، دون استثناء واحد ، جواب لا ثانى له ..

نعم ، رجل مثله ، لابد أن يحترم الشرف ..

وبشدة ..

وعلى الرغم من انتمائه إلى معسكر آخر ، فلا يمكنك إلا أن تمنحه ثقتك .. ثقتك الكاملة ..

« ماذا لديك بالضبط ؟!.. »

نطقها الرئيس الأمريكى فى اهتمام شديد ، اختلط بتوتره ، فقال (أدهم) ، وهو يتجاهل رجال الحراسة تمامًا :

ـ الأمر بالغ السرية يا سيادة الرئيس ، ولابد أن نتحدّث وحدنا .

ردّد الرئيس فى خوف :

ـ وحدنا ؟!

أجابه (أدهم) فى حزم :

ـ يمكنك استدعاء وزيرة خارجيتك ، ومدير مخابراتك ، فالحديث سيهمهما سماعه أيضًا .

قال قائد الحراسة فى محاولة ثانية فاشلة للصرامة :

ـ سيهرعون إلى هنا بعد لحظات ، مع دوى الرصاصات ، الذى ينطلق لأوّل مرة ، فى المكتب البيضاوى .

ابتسم (أدهم) فى سخرية ، تلاشت فى سرعة ، مع لهجته الحازمة ، وهو يقول :

ـ خطأ .. المكتب البيضاوى مجهّز بحيث يعزل الأصوات تمامًا ، ومؤمّن من الخارج بطبقة مزدوجة ، تمنع التنصُّت وانتقال الصوت ، وطلاؤه الحديث يشتّت حتى نظم التنصُّت الليزرية المتطوّرة ، فلا تحاول التلاعب بى .

وفى مبادرة مدهشة ، شديدة الجرأة والثقة ، ترك مكانه خلف الرئيس ، واتجه فى خطوات هادئة قوية نحو قائد الحراسة ، حتى صار يقف أمامه مباشرة ، وتطلَّع إلى عينيه ، بالعينين الشبيهتين بعينَىْ أسد ، اللتين تبثان مزيجًا من الرهبة والخوف ، فى نفس أشد الرجال بأسًا ، وقال فجأة بصوت قوى ، ولهجة آمرة صارمة :

ـ اذهب فاستدعهما .. فورًا .

وفى حركة غريزية ، ومع تلك اللهجة العسكرية القوية ، أدى قائد الحراسة وطاقمه التحية العسكرية ، فابتسم (أدهم) فى سخرية ، وهو يقول :

ـ ولم أغادر المكان بعد .

احتقن وجه قائد الحراسة فى شدة ، وتملكه غضب شديد ، وهو يحدِّق فى وجه (أدهم) ، ولكن الرئيس صاح فيه :

ـ نفذ الأمر .

ثم أضاف فى صوت أقل ، وهو يختلس نظرة قلقة إلى (أدهم) :

ـ واترك اثنين من رجالك هنا .

التفت إليه (أدهم) فى هدوء ، فانكمش فى مقعده بحركة غريزية ، وهو يضيف :

ـ حتى تصل الوزيرة فحسب .

نقل قائد الحراسة بصره بينه وبين (أدهم) فى سخط ، ثم أدَّى التحية العسكرية ، قائلاً :

ـ أمرك يا سيِّدى الرئيس .

ابتسم (أدهم) ابتسامة استفزَّت قائد الحراسة ، وجعلته يندفع مغادرًا المكتب البيضاوى ، تاركًا اثنين من رجاله داخله ، فالتفت (أدهم) إلى الرئيس الأمريكى ، وقال فى احترام أجاد أداءه :

ـ قرار حكيم يا سيادة الرئيس .

ثم أضاف فى لهجة ذات مغزى خاصّ :

ـ لصالح الولايات المتحدة الأمريكية .

وبحركة غريزية أيضًا ، انكمش الرئيس أكثر فى مقعده ..

فما يحدث داخل مكتبه ، يتجاوز كل خيال ..

بل كل كابوس ..

إنه ، وقبل حدوثه بجزء من الثانية ، كان يدخل فى نطاق المستحيل !..

كل المستحيل !..

أو أكثر ..

* * *

« دونا (كارولينا) .. »

همست الخادمة بالاسم فى حذر شديد ، وهى تدخل حجرة (دونا) على أطراف أصابعها ، فأجابتها (دونا) ، وهى راقدة على فراشها :

ـ ماذا تريدين ؟!

تنفست الخادمة الصعداء ، وهى تقول فى ارتياح :

ـ خشيت أن تكونى نائمة .

غمغمت (دونا) فى عصبية :

ـ من ينام فى مثل هذه الظروف ؟!

قالتها ، واعتدلت جالسة على طرف فراشها ، فى ثوب نومها الوردى الأنيق ، والتقطت فور اعتدالها سيجارة ملوّنة ، أشعلتها بقدّاحتها الخاصة ، ونفثت دخانها وهى تقول فى شىء من السخط ، لا مبرر له :

ـ ماذا هناك ؟!

أجابتها الخادمة فى خفوت ، وكأنها تخشى أن تزيد من سخطها :

ـ رجل المخابرات الأمريكية يرغب فى رؤيتك .

انعقد حاجبا (دونا) ، وهى تقول فى توتر :

ـ فى هذه الساعة ؟!

ارتبكت الخادمة ، وهى تقول :

ـ لقد استنكرت هذا عندما أتى ، ورفضت أن أوقظك ، ولكنه قال : إن الأمر ...

قاطعتها (دونا) ، وهى تنهض بحركة حادة :

ـ سأستقبله .

مضت نصف الساعة على قولها هذا ، عندما استقبلته فى مكتبها ، فى كامل زينتها ، وهو يقول فى عصبية :

ـ أى تصرُّف هذا يا (دونا) .. أطلب مقابلتك على وجه السرعة ، فتأتيننى بعد نصف الساعة ؟

أجابته فى برود صارم :

ـ هذا ما أعنيه بوجه السرعة .

ثم تراجعت فى مقعدها ، ونفثت دخان سيجارتها ، قائلة :

ـ ماذا تريد ؟!

اقترب منها ، وهو يسألها فى غضب :

ـ أين (سونيا جراهام) ؟!

قالت فى برود :

ـ ومن (سونيا جراهام) هذه ؟!

أجابها فى صرامة :

- جوابك هذا دليل إدانة يا (دونا) ، فربما لم يجمعك لقاء ما بـ (سونيا) ، أما أن تجهلى من هى ، فهذا هو المستحيل بعينه ، مع زعيمة كبيرة مثلكِ .

زمجرت ، قائلة فى شراسة :

- اختصر .

صمت لحظات ، وهو يتطلّع إليها فى غضب ، ثم لوّح بذراعه ، وتحرّك فى المكان فى عصبية ، قائلاً :

- (سونيا جراهام) نجحت فى الفرار من سجنها الخاص فى الأطلنطى ، بمعاونة جهة قوية .

قالت بنفس البرود :

- وأنت تتصوّر أننى هذه الجهة .

قال فى صرامة :

- لست أتصوّر .

ثم التفت إليها فى صرامة أكثر ، مضيفًا :

- أنا واثق .

سألته فى عصبية ، حاولت أن تخفيها خلف سخرية زائفة :

- وما دليلك على هذه الثقة - أيها المتحذلق ؟!

أجابها فى تحدٍّ :

- شاهد عيان .

انعقد حاجباها الجميلان ، وهى تتطلّع إليه فى شك ، وهو يردف :

- عندما اقتحم رجالك سجننا الخاص ، وقتلوا كل من فيه ؛ ليحرّروا تلك القطة المتوحّشة ، تركوا خلفهم شاهدًا ، لم ينتبهوا إليه ، من فرط رغبتهم فى إتمام العملية بالسرعة اللازمة ، قبل وصول قوات الإمداد .

ثم مال نحوها ، مضيفًا فى صرامة :

- الملازم (جون لارك) .

صمتت لحظات ، وهى تتطلّع إليه ، محاولة أن تستشف ما يخفيه خلف صرامته هذه ، وما إذا كان صادقًا فى أمر وجود هذا الشاهد ، أم إنها مجرّد محاولة لخداعها ، ودفعها إلى الاعتراف ؟!

وكحل وسط ، قالت ، مرتدية قناع الصرامة :

- أتصوّر أن من يقومون بأمر بالغ الجرأة كهذا ، سيرتدون أقنعة تخفى وجوههم على الأقل .

أجابها (سميث) بنفس الصرامة :

ـ ولكنهم كانوا يتحدثون الإيطالية ، وترأسهم فتاة ، تملك نفس مواصفات الصينية (تيا) .

غمغمت (دونا) ، وهى تبذل جهدًا خرافيًا لتخفى توترها :

ـ (تيـا) ؟!

أجابها فى حزم :

ـ نعم ، (تيا) .. تلك الفتاة الصينية الحسناء ، التى أرشدتنا إلى (سونيا) من قبل ، والتى رصد رجالنا لقاءك بها ثلاث مرات على الأقل ، خلال الأيام القليلة الماضية .

انعقد حاجباها فى شدة ، وأطفأت سيجارتها فى حدة ، وهى تقول بمنتهى الغضب :

ـ هل تراقبوننى ؟!

كانت تتوقَّع منه أن ينفى ، أو حتى يحاور ، ولكنه فاجأها بقولـه الصارم :

ـ بالتـأكيد .

نظرت إليه فى دهشة ، فتابع بنفس اللهجة :

ـ ماذا تتوقعين ؟!.. نحن رجال أمن ، وأنت زعيمة أكبر وأقوى منظمة إجرامية فى العالم .

هتفت به :

ـ لا يمكنك إثبات هذا .

زمجر ، قائلاً :

ـ ومن يحتاج إلى إثبات ؟!

ساد الصمت بينهما لحظات ، استوعبت خلالها تهديده فى وضوح ، قبل أن تسأله فى حدة :

ـ ماذا تريد يا (سميث) ؟!

أجابها فى عصبية :

ـ أن أفهم .

تساءلت فى حذر :

ـ تفهم مـاذا ؟!

لوَّح بذراعه ، وهو يهتف فى حدة :

ـ كل ما يحدث ..

أطلَّت من عينيها الفاتنتين نظرة عصبية متسائلة ، جعلته يتابع :

ـ لقد أفسدت التحالف عمدًا ، وتسببت فى فشل الخطة الدقيقة الوحيدة ، التى كان يمكنها التخلّص من ذلك الشيطان المصرى ، ثم تعاونت مع صينية موضع شك ، وساعدت (سونيا جراهام) على الفرار ، ورجالك سببوا أكبر فوضى فى تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية .

قالت فى غضب :

ـ أتعتبرنى مسئولة عن فشلكم ؟!

صاح ، وهو يلوّح نحوها بسبّابته :

ـ أنت قسم أعظم منها .

وبدا شديد العصبية ، وهو يضيف :

ـ رجالى أبلغونى أن الفوضى تسود العاصمة أيضًا ، ولأوّل مرة فى تاريخها ، دوت فيها القنابل ، وأصيب سكانها برعب مابعده رعب .. حتى البيت الأبيض نفسه ، تحدث فيه أمور لاندرى ماهيتها بعد .. ماذا يحدث يا (دونا) ؟!.. ماذا يحدث منذ بدأنا تلك الخطة السخيفة .

غمغمت :

ـ حلّت علينا اللعنة !

هتف مستنكرًا :

ـ أى لعنة ؟!

مالت نحوه ، وهى تقول فى توتر ملحوظ :

ـ لعنة (أدهم صبرى) .

حدّق فيها فى دهشة مستنكرة ، قبل أن يلوّح بذراعه كلها ، هاتفًا :

ـ أى سخف هذا يا (دونا) ؟!

قالت فى انفعال :

ـ راجع ملفه ، وستدرك أنه ليس سخفًا ، بل حقيقة .. راجع تاريخه ، وستدرك أن كل جهة سعت خلفه ، انتهت إلى الدمار .. كل جهة .

هتف :

ـ لأنهم يجهلون كيف يقاتلونه .

سألته فى بطء مستفز :

ـ وأنت تعرف ؟!

تطلّع إلى عينيها مباشرة فى غضب ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ لو أخبرتنى ما لديك ، فربما ...

قاطعته فى صرامة مماثلة :

ـ ربما ماذا ؟!

لم يحر جوابًا ، وهو يواصل التطلّع إليها فى غضب ، ثم همَّ بقول شىء ما ، عندما ارتفع رنين هاتفه الخاص فجأة ، فالتقطه فى سرعة ، وهو يقول :

ـ (سميث) .

انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يستمع إلى محدثه ، قبل أن يرتفعا فى دهشة عارمة ، وهو يهتف :

ـ لماذا ؟!

دفعها فضولها الشديد لأن تهتف به :

ـ ماذا هناك ؟!

حدّق فيها (سميث) دون جواب ..

فما يسمعه عبر الهاتف كان مذهلاً ..

بكل المقاييس .

★ ★ ★

5 ـ لمسة شر ..

على الرغم من السنوات الطوال ، التى قضتها (منى) فى العمل مع (قدرى) ، لم تتمالك نفسها من الدهشة والانبهار ، وهى تتابع أصابعه الذهبية ، وهى تعمل بكل السرعة والمهارة ، حتى إنها سألته :

ـ ماذا تصنع بالضبط ؟!

أجابها ، دون أن يلتفت إليها :

ـ ما طلبه (أدهم) .

سألته :

ـ وما هو ؟!

اعتدل ، ودفع ما يصنعه أمامها ، وهو يجيب :

ـ هذا .

حدّقت فى البطاقات التى أمامها ، قبل أن تقول :

ـ ولكنها هويات روسية .

أجابها فى زهو :

ـ بالفعل .

سألته فى قلق :

ـ أيعنى هذا أننا ؟..

قاطعها مبتسمًا :

ـ بالضبط .

صمتت لحظات ، محدّقة فيما أمامها ، قبل أن تقول :

ـ ولكن كيف ؟!

قال وهو يعاود عمله :

ـ أنتِ تعرفين (أدهم) .

ـ بالطبع .

ابتسم ، قائلاً :

ـ سيجد وسيلة .

صمتت لحظات أخرى ، قبل أن تغمغم :

ـ هذا ما يفعله دائمًا .

قالتها ، واتجهت نحو نافذة ذلك المنزل الآمن الجديد ، وتطلّعت إلى الشارع عبر ستارته العاكسة ، قبل أن تتساءل فى توتر :

ـ هل تعتقد أن هذا سيستمر ؟!

ترك (قدرى) عمله ، والتفت إليها ، متسائلاً فى قلق :

ـ ماذا تعنين ؟!

أجابته ، محاولة عدم الالتفات إليه ، حتى لا يرى تلك الدموع الساخنة ، التى انسالت من عينيها ، وراحت تجرى على وجنتيها ، متجهة نحو شفتيها المرتجفتين :

ـ أعنى أنه ما من شىء فى الوجود يمكن أن يستمر إلى الأبد ..

صحيح أنه ظل طيلة عمره يجد سبيلاً للخروج من أى مأزق ، وعلى الرغم من كثرة خصومه وقوتهم ، فهو ما زال حيًّا حتى الآن ، أو هكذا أتمنّى ، ولكن هذا لا يعنى أن الأمور يمكن أن تستمر على هذا النحو إلى الأبد .. أنت تعرف المثل القائل : دوام الحال من المحال .

والتفتت إليه ، مكملة فى بكاء ، لم تحاول إخفاءه :

ـ وكل شىء له نهاية .

شعر (قدرى) بانقباضة ثقيلة فى قلبه ، وهو يترك عمله ، وينهض إليها ، قائلاً فى ارتياع :

ـ (منى) .. ماذا بك يا عزيزتى ؟! لم أركِ قط على هذا النحو من الأسى والحزن واليأس !!.. لماذا كل هذا القلق البائس ؟!.. لقد واجهت مع (أدهم) ما هو أعنف وأشرس من هذا .

هزَّت رأسها نفيًا ، وهى تقول :

ـ ليس أشرس أو أعنف من هذا أبدًا .. إنه يخوض حربًا منفردة ، فى مواجهة العالم كله تقريبًا ، كل أجهزة مخابراته ، ومنظماته الإجرامية العنيفة .

وصمتت لحظة ؛ لتضيف :

ـ ولكن هذا ليس السبب الحقيقى .

سألها ، وهو يمسك كتفها مشفقًا :

ـ وما السبب الحقيقى ؟!

أجابت ودموعها تنساب أكثر :

ـ قلبى .

وقبل أن يضع تفسيرًا رومانسيًا لكلمتها ، تابعت فى حزن عجيب :

ـ قلبى يحدّثنى بأنها آخر مهمة ألتقى فيها به .

وانفجرت باكية ، وهى تضيف :

ـ بـ (أدهم) .

كلمتها جعلت جسد (قدرى) المكتظ ينتفض كله فى انفعال ..

ففى قلبه هو ، كان هناك شعور مخيف بأنها على حق هذه المرة .. إلى حد ما ..

★ ★ ★

« عرفنا أين نجد (توركنيف) .. »

نطق (جوركى) مساعد (أبل كوربوف) العبارة فى حسم ، جعل عينا هذا الأخير تتألقان فى ظفر ، وهو يقول :

ـ حقًا ؟!

أجابه (جوركى) ، وهو يختلس النظر إلى (يورى سافدوفيتش) ، الذى يتابع الحديث فى اهتمام كبير ، لم يرق له :

ـ إنه يعمل فى معمل خاص ، داخل مزرعة كبيرة ، خارج (لينينجراد) ، تمتلكها روسية ثرية ، تدعى (سوشا جريجورى) .

انعقد حاجبا (كوربوف) ، وهو يغمغم فى تفكير :

ـ (سوشا جريجورى) .. لم أسمع بهذا الاسم من قبل .

أشار (جوركى) بيده ، قائلاً :

ـ يقولون : إنها كانت تعيش فى (أوروبا) الشرقية ، حتى سقوط الاتحاد السوفيتى ، ثم جاءت لتستثمر ثروتها هنا .

غمغم (كوربوف) ، وهو يفكرُ فى عمق :

ـ ولم نعلم عنها شيئًا :

استغرق فى التفكير لحظات ، ثم تساءل فى صرامة :

ـ وماذا يفعل عالم مثله فى مزرعة ؟!

تدخَّل (يورى) ، قائلاً فى خبث :

ـ يستكمل تجاربه .

ـ حول ماذا ؟!

أجابه (يورى) فى خبث أكثر :

ـ سلاحنا .

رمقه (كوربوف) بنظرة وحشية غاضبة ، جعلته يستدرك فى سرعة :

ـ سلاحك أيها الزعيم .. سلاحك .

لم يرق (يورى) للمساعد (جوركى) أبدًا ، دون أن يدرى سببًا واضحًا لهذا ، ولكنه دفن هذا الشعور فى أعماقه ، وهو يسأل (كوربوف) :

ـ هل نحضره أيها الزعيم ؟!

أجابه (كوربوف) فى شراسة :

ـ ألديك رأى آخر ؟

تراجع (جوركى) ، مغمغمًا :

ـ كلاً أيها الزعيم .

ولكن (يورى) قال فجأة :

ـ أنا لدىَّ رأى آخر .

تفجَّرت دهشة مستنكرة فى وجوه الجميع ، فى حين بدا (كوربوف) ساخطًا ، وهو يسأله فى غلظة :

ـ رأى آخر ؟!

أجابه (يورى) ، وكأنه لم ينتبه لذلك التأثير ، الذى تركته عبارته :

ـ بالطبع ، فما دام (توركنيف) يعمل داخل تلك المزرعة ، فى مشروع شديد الخطورة كهذا ، فهو محاط بحراسة فائقة حتمًا .

قال (جوركى) فى غلظة :

ـ نحن لها .

واصل (يورى) ، وكأنه لم يسمعه :

ولو أننى فى مكان من يعمل لحسابهم ، فلن أسمح بوقوعه حيًّا فى أيدى الآخرين أبدًا .

قال (جوركى) فى غلظة أكثر :

ـ سنباغتهم ، قبل أن يتخذوا أى إجراء ، و ...

مرة أخرى واصل (يورى) حديثه مع (كوربوف) ، متجاهلاً (جوركى) تمامًا ، ومقاطعًا إياه :

ـ ولاتخذت كل ما يلزم للقضاء عليه ، وعلى كل أبحاثه ، قبل أن يفيد منها غيرى .

تطلَّع إليه (كوربوف) لحظات فى صمت ، قبل أن يتراجع فى مقعده الكبير ، قائلاً :

ـ عجبًا !.. لك عقلية تناسب واحدًا منا ، بأكثر مما تناسب عالمًا .

أخفى (يورى) ابتسامته ، وهو يقول :

ـ أحاول التفكير بعقلية علمية فحسب .

غمغم (كوربوف) فى تنكير :

ـ ولقد أفلحت .

صمت بعدها لحظات ، وكأنما يحسب شيئًا ما ، فقال (جوركى) فى غلظة طبيعية :

ـ هذا الأسلوب لا يناسبنا أيها الزعيم .

أشار إليه (كوربوف) بالصمت فى صرامة ، مما أورثه شعورًا قويًّا بالسخط ، تضاعف ألف مرة ، وعندما مال زعيمه على (يورى) ، يسأله :

ـ وماذا تقترح بالضبط ؟!

أجابه (يورى) فى رصانة :

ـ نقنعه بالانضمام إلينا .

بدت دهشة عارمة على وجه (جوركى) ، فى حين انعقد حاجبا (كوربوف) فى شدة ، وهو يسأل :

ـ وكيف ؟!

التمعت عينا (يورى) على نحو عجيب ، وهو يقول :

ـ لدىّ خطة .

ومرة أخرى لم يشعر (جوركى) بالارتياح ..

لم يشعر به أبدًا ..

★ ★ ★

مع التطورات المتلاحقة ، والنهاية العنيفة ، التى انتهى بها الأمر ، لم يعلم أحد أبدًا ماذا دار بالضبط ، داخل المكتب البيضاوى

للبيت الأبيض ، فى العاصمة الأمريكية (واشنطن) ، بين (أدهم صبرى) ، وأقطاب الإدارة الأمريكية ..

الرئيس ..

ووزيرة الخارجية ..

ومدير المخابرات ..

ولكن من الواضح أن (أدهم) قد أثبت ، من خلال مفاوضاته معهم ، أن قدرته على الإقناع تفوق قدرته على القتال ..

ألف مرة ..

فوزيرة الخارجية تكره العرب ، بجميع فئاتهم ، كما لم تكره شيئًا آخر فى حياتها كلها ..

ومدير المخابرات كان جزءًا من خطة كبرى ، تستهدف القضاء على (أدهم) ..

والرئيس الأمريكى عانى منه شخصيًا ، والمفترض أن يبغضه بشدة ..

وعلى الرغم من هذا فقد غادر (أدهم) مكتب الرئيس ، فى السابعة وست عشرة دقيقة بالضبط ، من صباح اليوم التالى ، وصحبته وزيرة الخارجية حتى باب مكتب الرئيس ، وهى واضحة التوتر ، ولكنها ، وعلى الرغم من هذا صافحته قائلة :

ـ إننا نعتمد عليك .

غمغم فى هدوء :

ـ سأحاول .

أما مدير المخابرات ، فقد سار معه ، وهما يتحدثان فى خفوت ، مرورًا برجال الحراسة ، الذين وقفوا فى احترام ، حتى مدخل البيت الأبيض ، وهناك توقفا ، وقال الرجل فى شىء من العصبية :

ـ لم أتصوَّر قط ، أنه من الممكن أن أفعل هذا يومًا !

قال (أدهم) فى هدوء :

ـ ولا أنا .

ونظر إلى عينَىْ مدير المخابرات مباشرة ، وهو يضيف :

ـ من الناحية العملية ، ما زلنا خصمين .

قال مدير المخابرات الأمريكى ، وهو يضغط على أسنانه فى غيظ :

ـ أعلم هذا ، ولكن مصلحة (أمريكا) تحتم أن نتعاون .

قال (أدهم) فى صرامة :

ـ بل قل مصلحة العالم كله .

ثم أضاف ، وهو يتركه منصرفًا :

ـ و (مصر) أولاً .

ضغط مدير المخابرات على أسنانه أكثر ، وعقد كفيه خلف ظهره ، وهو يتابعه ببصره فى سخط ، وسمع وزيرة الخارجية من خلفه تقول فى غضب مماثل :

ـ هل تصدق ما حدث هنا منذ لحظات ؟!

غمغم :

ـ إننى أحاول .

كان (أدهم) قد بلغ تلك النقطة ، التى يقف عندها قائد الحراسة ، والذى اتخذ وقفة عسكرية صارمة ، وأدى التحية العسكرية فى قوة ، كما تقتضى التقاليد الرسمية ، فالتفت إليه (أدهم) ، وتطلّع إلى عينيه مباشرة ، وهو يقول فى لهجة ، تفوح برائحة السخرية :

ـ تجيد التحية العسكرية يا رجل .. استمر .

احتقن وجه قائد الحراسة فى شدة ، فى حين واصل (أدهم) طريقه ، إلى سيارة تنتظره على مسافة قريبة ، فغمغمت وزيرة الخارجية ساخطة :

ـ ألا تخشون أن يحوّل كل هذا لمصلحة بلاده ؟!

قال فى بطء :

ـ دعيه يؤدى مهمته أولاً .

وانعقد حاجباه ، وهو يضيف فى صرامة :

ـ وبعدها سنتولى أمره .. وبعنف .

قالها ، وكلاهما يتابع سيارة (أدهم) ، وهى تبتعد :

وتبتعد ..

وتبتعد ..

★ ★ ★

« مازلت عاجزًا عن تصديق هذا !!.. »

نطقها السيِّد (حسن) فى دهشة بالغة ، تمتزج بإعجاب وزهو شديدين ، وهو يتطلّع إلى (أدهم) ، داخل مبنى السفارة المصرية ، فهتف (هشام) بكل الحماس والفرحة :

ـ بل صدقه .. السيِّد (أدهم) قادر على قهر المستحيل !.. لايمكنك أن تتصوّر إمكانياته وقدراته وجرأته .. لقد عاصرت كل هذا بنفسى .

اتسعت ابتسامة السيِّد (حسن) ، وهو يقول :

ـ تأكّد من أن روح والدك فخورة بك حتمًا .

بدا تأثر واضح على وجه (أدهم) ، لم يستطع إخفاءه ، وهو يقول :

ـ ولكننى لم أثأر لمقتله بعد .

ربَّت (حسن) على كتفه ، وقال فى تعاطف :

ـ لم يعد هناك مبرِّر لهذا .. لقد فعلت ما يساوى ألف انتقام رهيب .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى حذر :

ـ ثم إن قاتل والدك يلقى انتقام المنتقم الجبار نفسه الآن .

رفع (أدهم) عينيه إليه فى حركة حادة ، هاتفًا :

ـ هل ..

أجابه (حسن) ، قبل أن يكمل سؤاله :

ـ نعم ، قضى نحبه بعد صراع عنيف مع مرض خبيث ، التهم جهازه العصبى كله ، مع آلام رهيبة ، لن تساوى شيئًا مع ما يلقاه الآن هناك .

قالها وهو يشير بسبَّابته إلى أعلى ، فأغمض (أدهم) عينيه ، مغمغمًا :

ـ سبحان الوهاب القهَّار .

ران صمت مهيب لحظات ، بعد عبارته هذه ، قبل أن يسأله (حسن) فى حزم ، أراد به الخروج من الموقف :

ـ والآن ما الخطوة التالية ؟!

شدَّ (أدهم) قامته ، وكأنما أعاد إليه السؤال طبيعة المقاتل القديم ، ورجل المخابرات المخضرم ، وهو يجيب :

ـ (سيبيريا) .

سأله (حسن) فى اهتمام :

ـ ولماذا (سيبيريا) ؟!

أشار بيده ، مجيبًا :

لأن ما نبحث عنه هناك .

صمت (حسن) طويلاً ، ثم قال :

ـ وأنت تدرك بالطبع ، أن كل ما واجهته حتى الآن ، قد لا يساوى نصف ما يمكن أن تواجهه هناك .. فى (روسيا) .

قال (أدهم) فى حزم :

ـ أعلم هذا .

ثم أضاف فى قوة :

ـ ولكنها (مصر) .

الطريقة التى نطق بها اسم الوطن ، أطلقت رجفة خاصة ، فى أجساد كل الحاضرين ، وأغرقتهم ثوان فى صمت مهيب ، قبل أن يقول (حسن) :

ـ إنه العالم كله هذه المرة .

شدّ (أدهم) قامته أكثر ، وهو يقول :

ـ و(مصر) أوّلاً .

مرة أخرى ، سرت تلك الرجفة فى الأجساد ، و(هشام) يتساءل فى خفوت :

ـ وكيف ستصل إليها ، والروس لم يخرجوا من اللعبة بعد ؟!

ابتسم (أدهم) ، وهو يقول :

ـ بالطرق الرسمية .

وعلى الرغم من أن العبارة لم تكن واضحة المعالم ، ابتسم (حسن) ابتسامة شاحبة ، وهو يقول :

ـ على بركة الله .

ثم مد يده يصافحه ، مستطردًا :

ـ تذكّر دومًا ، أننا جميعًا معك .

غمغم (أدهم) :

ـ أعلم هذا .

ظلّ كلاهما يتطلّع إلى عينَى الآخر لحظات ، ثم فجأة ، وبخلاف كل التقاليد المتبعة فى عالمهما ، احتضنه السيِّد (حسن) فى قوة ، وتدفّقت مشاعر أبوته الدافقة ، وهو يقول له :

ـ اعتنِ بنفسك جيدًا .

غمغم (أدهم) :

ـ سأفعل .

ومرة أخرى ، احتضنه (حسن) فى قوة :

ففى أعمق أعماقه ، وفى جزء خفى من نفسه ، لايدرى مكانه بالضبط ، كان هناك شعور قوى ، بأن هذه هى لحظة الوداع ..

وأنه لن يلتقى بـ (أدهم) ثانية قط ..

والمدهش أن هذا الشعور كان صحيحًا .

تمامًا ..

* * *

انعقد حاجبا رجل المخابرات البريطانى سير (ويليام) بشدة، وهو يقول :

لمساعده (جون) فى توتر :

- مستحيل !.. ما تقوله مستحيل !.. لايمكن أن يفعل الأمريكيون هذا .

قال (جون) فى عصبية :

- ولكنهم فعلوه .

ولوّح بذراعه ، وهو يتحرّك فى المكان ، مستطردًا :

- (أدهم) سافر مع فريق خاص ، منذ لحظات ، على متن واحدة من طائراتهم الرسمية ، إلى جهة لم يعلن عنها ، وسلاح الطيران الأمريكى سيتولّى حمايته ، حتى تتجاوز طائرته المجال الجوى .

انعقد حاجبا سير (ويليام) أكثر ، وهو يقول مكررًا :

- مستحيل !

شعر أن ساقيه لاتحملانه ، فترك جسده يسقط على مقعد قريب ، وهو يقول :

- كيف فعلوا هذا ؟!.. كيف ؟!

أجابه (جون) ، وعصبيته تتزايد :

- رجلنا فى البيت الأبيض لايعرف ماذا حدث بالضبط ، ولكنه يؤكِّد أن المصرى كان هناك .

هتف (ويليام) فى ذهول :

- (أدهم) كان هناك ؟!.. فى البيت الأبيض ؟!

قال (جون) فى غضب :

- اجتمع بالرئيس الأمريكى ووزيرة الخارجية ومدير المخابرات ، لأكثر من ساعتين ، ثم خرج بعدها بصحبة الأخيرين ، وأدى طاقم الحراسة له التحية العسكرية .

اعتدل (ويليام) بحركة حادة ، وبلغ انعقاد حاجبيه أقصاه ، وهو يقول :

- تحية عسكرية .. ما الذى يعنيه هذا بالضبط ؟! هل أصبح يعمل لحساب الأمريكيين ؟

هزَّ (جون) رأسه فى قوة ، وهو يقول :

- ذلك الرجل لا يمكن أن يعمل ، إلا من أجل (مصر) .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف فى عصبية بالغة :

- هكذا يقول ملفه .

أجابه (ويليام) بسرعة :

- جِدْ تفسيرًا آخر إذن .

تردَّد (جون) لحظة ، قبل أن يقول :

- ربما اتفقت مصالحهم مع مصلحة بلاده .

قال (ويليام) فى صرامة ، مبعثها التفكير العميق ، والتوتر الشديد :

- ونجح فى إقناعهم بهذا ؟!

غمغم (جون) ، فى تردُّد أكثر :

- هذا ما يبدو .

انتحى (ويليام) ركنًا ، وغرق فى تفكير عميق ، استغرق ما يزيد على دقيقة كاملة ، لم يحاول (جون) خلالها حتى أن يتحدَّث إليه بحرف واحد ، حتى اعتدل ، وسأله فى اهتمام شديد :

- وماذا عن الإسرائيليين ؟!

لم يفهم (جون) بالضبط سر السؤال عن الإسرائيليين ، فى موقف يتعلق بالأمريكيين والمصريين ، إلا أنه أجاب على الفور :

- (راءول) استقل طائرة (موسكو) ، منذ ساعتين تقريبًا .

عاد حاجبا (ويليام) ينعقدان ، وهو يقول :

- (موسكو) ؟!

وراح يتحرَّك داخل المكان ، وهو يقول ، وكأنما يحدِّث نفسه :

- هناك شىء ما حتمًا ، يربط كل هذا ببعضه البعض .. (راءول) يترك كل شىء فجأة ، ويسافر إلى (موسكو) على وجه السرعة ، و(أدهم) يقدم على أمر مستحيل ، منافٍ لأى عقل ومنطق ، ويذهب بقدميه إلى البيت الأبيض ، ويقضى فيها ما يزيد على الساعتين ، ثم يخرج بصحبة وزيرة الخارجية ، التى تبغض كل ما هو عربى ، ومدير المخابرات ، الذى هو جزء من خطة التحالف ، ويؤدى له طاقم الحراسة التحية العسكرية أيضًا ، كما لو كان زائرًا رسميًّا ، وبعدها بنصف الساعة فقط ، يسافر على طائرة أمريكية إلى (موسكو) مع فريقه الخاص .. هناك خيط يربط كل هذا بالتأكيد .

كان (جون) يرغب فى الإدلاء برأيه ، إلا أنه لزم الصمت تمامًا ، منتظرًا ما سيكمل به (ويليام) حديثه ، وخشية أن يفسد تفكيره ..

ولقد استغرق سير (ويليام) دقيقتين فى التفكير بالفعل ، قبل أن يعتدل فجأة ، وتبدو عليه علامات الفهم ، وهو يقول لمساعده فى انفعال :

- أجرِ اتصالاتك ، وجِدْ طائرة خاصة ، مستعدة للانطلاق خلال ساعة واحدة .

سأله (جون) فى اهتمام :

- إلى أين ؟!

أجابه بمنتهى الحزم :

- (موسكو) ..

وهنا .. هنا فقط ، بدأ (جون) يفهم ..

فقط بدأ ..

* * *

فى رصانة واهتمام ، راحت أصابع (إيفان توركنيف) ، العالم الروسى الفذ ، تجرى على أزرار لوحة الكمبيوتر المتطوّر ، الذى يعمل عليه ..

كل يسعى لتطوير ذلك السلاح الرهيب ، الذى ابتكرته قريحة فريق من أفضل علماء الأسلحة ، من مختلف الجنسيات ، فى هذا المعمل ، الذى يجلس فيه الآن وحده ..

علماء فى الفيزياء ..

والكيمياء ..

والطبيعة النووية ..

والكمبيوتر ..

وعلم طبقات الأرض ..

عشرات شاركوه العمل ؛ لتنفيذ التصميمات التى وضعها كفكرة نظرية ، وعرضها من قبل على القيادة السوفيتية ، التى كانت منشغلة بسقوط اتحادها القوى ، الذى تكوّن عقب الحرب الثانية ، فلم تول المشروع أدنى اهتمام ، مما أورثه شعورًا بالسخط والنقمة والغضب ..

ثم جاءت تلك الفاتنة ، وتبنّت مشروعه ، وأبدت اهتمامًا شديدًا به ، أعاد إليه إحساسه بالعزة والكرامة ، وثقته بنفسه ، وقدرته على مواصلة العمل ، وخاصة عندما وضعت بين يديه إمكانيات هائلة ، فاقت المليار دولار ، وهذا المعمل الهائل ، الذى يحوى من الأجهزة والآلات والمعدات ، ما لم يحلم حتى برؤيته ، على صفحات المجلات العلمية ..

وطوال عامين أو أكثر ، عمل مع فريقه لتحويل النظرية إلى حقيقة ، وأدّى كل فرد فى فريقه العلمى عمله على ما يرام ..

وأخيرًا صنعوه ..

صنعوا ذلك السلاح الجبار ..

ومنحته تلك الفاتنة مكافأة هائلة عندئذ ، وطلبت منه أن يكتب قائمة بأسماء من لم تعد هناك حاجة لوجودهم ، من فريق العلماء والعاملين ، حتى يتم منحهم مكافآتهم ثم صرفهم ..

ولقد قضى يومين كاملين يعد تلك القائمة ..

وبالفعل ، لم يعد أولئك هنا ..

خلا المعمل إلا من عدد قليل ، راح يتناقص يومًا بعد يوم ، كلما انتهى أحدهم من مهمته ، حتى لم يعد هناك سوى أربعة من العلماء ، يرأسهم هو .. ولأن الأمر سرى للغاية ، فالفاتنة منعت خروجهم ، منذ بدأ المشروع ، ولكنها وفرت لهم فى مزرعتها كل ما يمكن أن يحلموا به ، حتى إنهم عاشوا حياة الأباطرة ، وانشغلوا بعملهم ، الذى هو متعة العلماء الفعلية ، و ...

« صباح الخير يا عزيزى (توركنيف) .. »

انتفض جسده فى عنف ، عندما سمع العبارة ، داخل معمل يفترض أنه خال فى هذا الوقت ، إلا منه ، والتفت بحركة حادة للغاية إلى مصدر الصوت ، واتسعت عيناه فى دهشة شديدة ، وهو يحدّق فى الواقف أمامه ، قبل أن يهتف بكل توتره :

- (ساندوفيتش) .. أنت (يورى ساندوفيتش) .. أليس كذلك ؟!

ابتسم (يورى) ، وهو يقترب منه ، قائلاً :

- كم يسعدنى أن تذكرنى .. لقد التقينا منذ عدة سنوات ، فى ذلك المؤتمر ، فى ...

قاطعه (توركنيف) فى توتر شديد :

- كيف دخلت إلى هنا ؟!

واصل (يورى) ابتسامته واقترابه ، وهو يقول :

- تستطيع أن تقول : إننى أعمل مع جهة بالغة القوة ، لا تقف أمامها أية حواجز أو أسوار .

هتف (توركنيف) ، وهو يتراجع مبتعدًا عنه :

- إلا هنا .

توقف (يورى) ، وقلّب كفيه ، قائلاً :

- وها أنذا .

حدّق (توركنيف) فيه ، وكأنما لا يصدّق أنه هنا أمامه ، ثم لم يلبث أن كرّر فى عصبية شديدة :

- لم تخبرنى كيف دخلت إلى هنا !

مال (يورى) نحوه ، دون أن يتحرّك من مكانه ، وهو يقول :

- ليس المهم هو الدخول إلى هنا ، بل الخروج .

سأله (توركنيف) فى حذر ، امتزج بتوتره وعصبيته :

- ماذا تعنى ؟!

أجابه (يورى) فى خبث :

- أعنى أن كل من خرج من هنا ، لم يصل إلى الطريق أبدًا .

كرّر (توركنيف) سؤاله مأخوذًا :

- أخبرنى ماذا تعنى ؟!

أخرج (يورى) من جيبه ورقة مطوية ، مد يده إليه بها ، وهو يقول :

- هذه قائمة بالعلماء ، الذين لقوا مصرعهم ، خلال العامين الماضيين ، فى حوادث عنيفة .

التقط (توركنيف) الورقة فى حذر ، وطالعها وأصابعه ترتجف ، ثم اتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يقرأ القائمة بها ، قبل أن يرفع عينيه إلى (يورى) ، قائلاً فى هلع :

- إنهم كل من عمل معى هنا .

أجابه (يورى) :

- بالضبط .. كلهم أنهوا عملهم ، وأكملوا دورهم ، ولم تعد هناك حاجة إليهم ، لذا كان من الضرورى ، حفاظًا على السرية ، القضاء عليهم جميعًا .

اتسعت عينا (توركنيف) فى ارتياع شديد ، فأضاف (يورى) :

- هكذا يبقى سر السلاح .. بالقضاء على كل من عمل فيه .. يسميه العرب جزاء (سِنِمَّار)(*) ..

(*) سِنِمَّار : مهندس عبقرى ، بنى قصرًا أشبه بالقيد ، به عدة ممرات سرية ، لأحد الملوك العظام ؛ وليحافظ الملك على سر تلك الممرات ، ألقى سِنِمَّار نفسه من فوق القصر .

وصمت لحظة ؛ ليترك لـ (توركنيف) فرصة لاستيعاب الموقف ، ثم قال فى حزم خبيث :

- وسيأتى دورك حتمًا .

ارتجف جسد (توركنيف) فى شدة ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يحدّق فى (يورى) ، قبل أن يقول ، فى صوت أقرب إلى البكاء :

- ماذا تريد منى بالضبط يا (يورى) ؟!

قال (يورى) بسرعة :

- عرض .

أطل التساؤل من العينين المذعورتين ، فأضاف (يورى) فى استمتاع :

- سأقدم لك عرضًا ، لا تستطيع رفضه .

قالها ، وكأنه تمنى قولها دومًا(*) ، ثم اتسعت ابتسامته بثقة .. بمنتهى الثقة ..

لقد اقتربت لحظة السيطرة على العالم ..

اقتربت أكثر مما يتصوّر الجميع ..

★ ★ ★

(★) عبارة شهيرة ، كان يرددها (مارلوف براندو) ، ومن بعده (آل باتشينو) ، فى الجزء الأوّل ، من سلسلة أفلام الأب الروحى .

6 ـ الجليد الروسى ..

قرأ مدير المخابرات المصرية ذلك التقرير العاجل ، الذى وصل من (واشنطن) ، فى عناية واهتمام بالغين ، قبل أن يرفع رأسه إلى نائبه ، قائلاً بابتسامة ، لم يستطع إخفاءها ، على الرغم من دقة الموقف :

ـ فى البيت الأبيض ؟!

أومأ نائبه برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

ـ وطاقم الحراسة أدى له التحية أيضًا ..

اتسعت ابتسامة المدير ، وهو يهزُّ رأسه ، مغمغمًا :

ـ مازال (ن ـ 1) مصرًا على إبهارى ، بعد كل هذه السنين !!

ثم تلاشت ابتسامته ؛ ليستعيد جديته ، مواصلاً فى اهتمام :

ـ والآن سافر إلى (موسكو) .

مرة أخرى أومأ النائب برأسه إيجابًا ، قائلاً :

ـ ليس وحده .. (راعول) سبقه إلى هناك ، وكذلك (سونيا) ، فى واحدة من طائرات (دونا كارولينا) الخاصة .. رجالنا فى منظمتها أبلغونا هذا .

تراجع المدير فى مقعده ، قائلاً :

ـ وماذا عن البريطانيين ؟!

أجابه فى اهتمام :

ـ استأجروا طائرة خاصة ، ستنطلق بهم إلى جهة ، لم يُفصح عنها بعد ، ولكن من المرجَّح أنها (موسكو) .

انعقد حاجبا المدير ، وهو يقول فى قلق :

ـ إذن فالمعركة ستنتقل ، من الجحيم الغربى ، إلى الجليد الروسى .

قال النائب :

ـ خبرتى تؤكِّد أن الجليد الروسى أكثر خطورة .

وافقه المدير بإيماءة من رأسه ، مغمغمًا :

ـ بالتأكيد .

ثم عاد يسأل فى اهتمام :

ـ وماذا عن السيِّد (حسن) ؟!

أجابه فى سرعة :

ـ يواصل إدارة الموقف ، من موقعه هناك ، فى السفارة المصرية فى (واشنطن) ، ولقد نفذنا ما طلبه ، وأرسلنا الفريق الذى اختاره إلى (موسكو) ؛ ليلتقى بسيادة العميد هناك .

قال المدير ، وهو يفكِّر فى عمق :

- إنه رجل مخابرات مخضرم ، وأنا واثق من حسن إدارته للموقف من هناك .

قال النائب فى احترام وثقة :

- كلنا واثقون من هذا يا سيِّدى .

مرة أخرى ، أومأ المدير برأسه ، ثم عاد يغرق فى تفكيره العميق ، لما يقرب من دقيقتين كاملتين ، قبل أن يسأل فى اهتمام ، تفوح منه رائحة القلق :

- كيف ذهب السيِّد (حسن) إلى السفارة ؟!

أجابه نائبه ، وهو يشعر بالحيرة للسؤال :

- فى سيارة السفارة .

التقط المدير نفسًا عميقًا ، وهو يقول :

- هذا ما كنت أخشاه ..

وتضاعفت حيرة نائبه ..

ألف مرة ..

فهو لم يدرك أبدًا ماذا يقلق فى هذا الأمر ؟!..

ماذا ؟!..

ماذا ؟!..

★ ★ ★

« لا يمكننى أن أتبعك .. هذا مستحيل !.. »

نطقها العالم الروسى (توركنيف) فى توتر شديد ، وهو يحدِّق فى وجه (يورى) ، الذى هتف فى دهشة :

- بعد كل ما أخبرتك به ؟!

هزَّ (توركنيف) رأسه فى قوة ، وهو يقول :

- لا شأن للأمر بما أخبرتنى به .

هتف به (يورى) ، وقد اكتسبت لهجته لمحة شرسة :

- بماذا إذن ؟!

رفع (توركنيف) معصمه أمام وجهه ، قائلاً :

- بهذا .

حدَّق (يورى) فى ذلك السوار الإلكترونى ، المحيط بمعصم (توركنيف) ، قبل أن يرفع عينيه إلى وجهه ، متسائلاً فى استنكار :

- أهذا ما أتصوَّره ؟!

أجابه (توركنيف) فى توتر شديد :

- نعم ، سوار إلكترونى ، متصل بجهاز أمنى خاص للغاية ، يمنعنى من تجاوز أسوار المزرعة ، وإلا ...

لم يكمل عبارته ، ولكن (يورى) استحثه ، قائلاً :

ـ وإلا ماذا ؟!

تلفّت (توركنيف) حوله ، وكأنما يخشى أن يسمعه أحد ، ثم مال نحو (يورى) ، هامسًا بصوت مرتجف :

ـ ينفجـر .

وشعر (يورى) بغضب عارم ، يتفجّر فى أعماقه ..

تلك الحقيرة أحكمت الحصار بشدة ..

اتخذت كل ما يلزم للسيطرة ..

السيطرة على (توركنيف) ..

وعلى العالم أجمع ..

ولكن لا ..

لا شىء فى الوجود يمكنه أن يقف فى وجه الخُطة ..

خُطة السيطرة على كل القوى ..

خُطة السطوة ..

والنفـوذ ..

والقـوة ..

والمليارات ..

بل ترليونات بلا حدود ..

وبكل الحزم والإصرار ، قال :

ـ إنه مجرّد سوار إلكترونى ، ويمكننا أن ...

قاطعه (توركنيف) فى عصبية :

ـ كـلا ..

سأله فى عصبية :

ـ ولِمَ لا ؟!

أجابه بكل توتر الدنيا :

ـ لأنه مجهّز بحيث ينفجر ، مع أية محاولة للعبث به ، أو خلعه ، دون إضافة رقمه السرى ، المكوّن من ستة عشر رقمًا ورمزًا .

حاول (يورى) أن يقول شيئًا ، ولكن (توركنيف) استوقفه ، وهو يواصل فى توتر أكثر :

ـ وحتى لو قطعت الاتصال ، بينه وبين جهاز التحكُّم الأمنى ، أو قطعت التيار الكهربى عن هذا الأخير ، فالسوّار معدّ بحيث ينفجر ، لو توقّف عن تلقى نبضات الأمان المشفّرة ، لخمس ثوان فحسب .

ثم زفر فى حرارة ، قبل أن يضيف فى عصبية :

ـ باختصار .. ما من سبيل للخروج من هنا .

قال (يورى) فى غيظ :

ـ وكيف تقبل بأمر كهذا ؟!

أجابه فى مرارة :

ـ كنت أتصورُ أنها وسيلة تأمين ..

هتف (يورى) فى غضب :

ـ وكيف لعالم مثلك أن ...

كان لديه الكثير ؛ ليصرخ به فى وجهه ، ولكنه بتر هتافه عند هذا الجزء ، وبذل جهدًا خرافيًا للسيطرة على أعصابه ، وهو يقول :

ـ فَلْيكُنْ .. يمكنك أن تبقى .

ثم مد يده إليه ، مستطردًا :

ـ فقط أعطنى المعادلة الناقصة ، لتشغيل ذلك السلاح .

هزّ (توركنيف) رأسه نفيًا ، ثم أشار إليه قائلاً :

ـ إنها هنا .

بُهتَ (يورى) ، وهو يسأله :

ـ هنا أين ؟!

أجابه فى صرامة :

ـ هنا .. فى رأسى .

انعقد حاجبا (يورى) وهو يقول فى غضب :

ـ هل جننت ؟!

أجابه فى حدة :

ـ بل هذا أذكى ما فعلته وأعقله .. فبهذا أصبحت قيمتى مساوية لقيمة أقوى سلاح فى العالم ، وسيسعى الجميع للحفاظ على حياتى ، حفاظًا على المعادلة نفسها .

تطلّع إليه (يورى) فى غيظ شديد ، وكان عليه أن يبذل ضعف ما بذله من قبل ؛ ليسيطر على أعصابه ، وهو يقول :

ـ والآن ماذا ؟!

مال (توركنيف) نحوه ، قائلاً :

ـ سأستعير كلمتك ، وأعيدها إليك .

وتطلّع إلى عينيه مباشرة ، وهو يضيف :

ـ سأقدِّم لك عرضًا ، لا يمكنك رفضه ... استعن بأولئك الذين خلفك ؛ لتخرجونى من هنا حيًا .

وصمت لحظة ، ثم أكمل فى حزم :

ـ وسأمنحكم تلك المعادلة .

ثم التقط نفسًا عميقًا ، مكملاً :

ـ وحكم العالم كله .

وارتجف جسد (يورى) فى انفعال ..

انفعال بحجم العالم ..

أجمع ..

★ ★ ★

انتفض الجنرال (ماليكوف) فى انفعال جارف ، وهو يواجه رجله (فيدور) ، قائلاً فى حدة :

ـ الإسرائيلى عاد إلى هنا ؟!

أجابه (فيدور) فى حزم :

ـ منذ ساعة واحدة يا جنرال .

صاح فيه (ماليكوف) فى غضب :

ـ ساعة ؟!.. ساعة كاملة ؟!.. هل تعلم كم تساوى ساعة فى عالمنا ؟!.. هل تدرك ما يمكن أن يفعله ذلك الإسرائيلى هنا ، خلال ساعة كاملة .

صمت (فيدور) تمامًا ، دون أن يحاول الدفاع عن نفسه ، فى حين واصل (ماليكوف) ، وهو يلوِّح بذراعيه فى ثورة :

ـ أحيانًا أشعر بالعار ؛ لأنكم رجالى .

انتفض (فيدور) عند هذه النقطة ، وهتف فى انفعال :

ـ لن يفلت منا يا سيِّدى .. إننا نتتبعه كظله ، منذ وضع قدميه على الأرض الروسية ، ونحيط به فى كل خطوة ، إحاطة السِّوار بالمعصم .

قال (ماليكوف) فى غضب :

ـ هذا ما تتصوَّرونه .

قال (فيدور) فى حزم :

ـ بل ما نفعله بالفعل .

زفر (ماليكوف) فى عصبية ، وهو يقول :

ـ سنرى .

لم يكد ينطقها ، حتى ارتفع رنين هاتفه الخاص المؤمّن ، فالتقطه فى سرعة ، قائلاً فى خشونة :

- ماذا هناك ؟!

انعقد حاجباه ، وهو يسمع إلى محدّثه فى توتر شديد ، التقطته عينا (فيدور) فى وضوح ، مما جعله واثقًا من خطورة ما يسمعه الجنرال ، الذى ظلّ صامتًا ، حتى نهاية المحادثة ، قبل أن يقول فى حدة وصرامة شديدتين :

- أريد معرفة كل شىء عنها ، فى أسرع وقت ممكن .

وأنهى المحادثة ، ثم رفع عينيه ، إلى ذلك الفيض من التساؤل ، المنهمر من عينى (فيدور) ، وقال فى حدة :

- من الواضح أن بلدنا قد صار أرضًا للصراع .

سأله (فيدور) فى لهفة :

- ماذا حدث يا سيّدى الجنرال ؟!

أجابه فى عصبية :

- (سونيا جراهام) وصلت إلى هنا ، عبر مطار سرى خاص ، ولم يبلغنا الخبر ، إلا بعد أن اختفت تمامًا ، ولن يعرف أحد أين هى بالضبط ؟!

شاركه (فيدور) دهشته ، بالإضافة إلى توتر شديد ، وهو يقول :

- (سونيا جراهام) .. تلك الأفعى الإسرائيلية .

ضرب (ماليكوف) سطح مكتبه بقبضته فى قوة ، وهو يقول فى صرامة غاضبة :

- تلك الأفعى لم تعد إسرائيلية ، بل صارت زعيمة لأقوى منظمة جاسوسية عالمية ، من الواضح أنها أفلتت من ذلك السجن الأمريكى الخاص المؤمّن ، وأتت إلى هنا ، سعيًا وراء أمر خطير للغاية ، يستحق المغامرة والمجازفة .

تساءل (فيدور) متوترًا :

- أمر مثل ماذا ؟!

صمت (ماليكوف) لحظات ، وهو يتطلّع إليه ، ثمّ قال فى صرامة :

- سلاح .. سلاح قادر على السيطرة على الأرض كلها .

قالها ، وهو يلتقط سمّاعة تليفون الرياسة الخاص ، ليقول فور سماعه صوت الرئيس الروسى :

- أتعشّم أن تكون القوات التى طلبتها مستعدة أيها الرئيس .

وصمت لحظة ، ليضيف بكل الحزم والحسم والصرامة والانفعال :

ـ لقد بدأت الحرب .. حرب السيطرة .

ولم يصدِّق (فيدور) ما يسمعه ..

أبدًا ..

★ ★ ★

انعقد حاجبا (أبل كوربوف) فى غضب ، وهو يستمع إلى (يورى) ، قبل أن يقول فى حدة :

ـ إذن فقد فشلت لعبتك !

اندهش (جوركى) ؛ لأن شيئًا من التوتر لم يظهر على وجه (يورى) أو فى صوته وهو يقول :

ـ مطلقًا .. لقد التقيت بـ (توركنيف) ، خلف أسوار منيعة ، وتحدثت إليه ، وعرفت كيف يفكر ، ولماذا لم يغادر المكان ، والأهم أننى عرفت ، أين تلك المعادلة الناقصة .

قال (كوربوف) فى سخرية عصبية :

ـ فى رأسه ؟!.. يا له من مكان سخيف !..

وكيف سيمكننا الحصول عليها أيها العبقرى ؟!.. هل نقطع رأسه ؟!

مرة أخرى بدا قويًا متماسكًا ، وهو يقول :

ـ شىء من هذا القبيل .

حدَّق فيه الجميع فى دهشة ، حتى (كوربوف) نفسه ، فتابع بسرعة ، قبل أن يتوتر الموقف :

ـ إنه يرفض إبلاغنا بالمعادلة ؛ للحفاظ على حياته ، فماذا لو بدا له أن الوسيلة الوحيدة ، للحفاظ على حياته ، هى أن يبلغنا المعادلة ؟!..

بدا اهتمام شديد على وجه (كوربوف) ، وهو يقول :

ـ وكيف هذا ؟!

اعتدل (يورى) ، وهو يقول بابتسامة خبيثة :

ـ لدىَّ خُطة .

ولدقيقتين تقريبًا ، شرح ملخصًا لخطته ، واستمع إليه الجميع فى دهشة بالغة ، وانبهار شديد ، حتى انتهى منها ، فهتف (كوربوف) :

ـ ألم أقل لك : أنت تمتلك عقلية إجرامية مدهشة .

غمغم (جوركى) فى توتر :

ـ وهذا يثير القلق .

التفت إليه (يورى) بنظرة نارية ، فى حين انعقد حاجبا (كوربوف) ، دون أن ينطق ببنت شفة ، حتى التفت إليه (يورى) مرة أخرى ، وقال :

- يمكننا البدء فى التنفيذ ، خلال ساعة واحدة .

لم يعلّق (كوربوف) بحرف واحد ، وهو ينظر إلى (يورى) فى اهتمام ، فاعتدل هذا الأخير ، وشدّ قامته ، وهو يقول فى خضوع خبيث :

- فى انتظار أوامرك أيها الزعيم .

تبادل (جوركى) نظرة مع زعيمه ، لم تخف عن عينى (يورى) الفاحصتين ، ولكنه ظلّ يحتفظ بملامح جامدة ، حتى استدار إليه (كوربوف) ، قائلاً :

- نفّذ .

وهنا فقط ابتسم (يورى) ..

فبالنسبة إليه ، كان كل شىء يسير على ما يرام ..

وكما رسم فى ذهنه ..

بالحرف الواحد ..

* * *

كانت دهشة المارة عارمة ، فى سوق (موسكو) الرئيسية ، عندما شاهدوا تلك السيارة شديدة الفخامة ، والتى تشق طريقها فى الشارع فى بطء ، يقودها سائق أصلع ضخم الجثة ، يرتدى منظارًا أسود ضخمًا ، يخفى عينيه تمامًا ، وإلى جواره آخر أكثر ضخامة ، يرتدى منظارًا شبيهًا ، على نحو يوحى بأنهما حارسان خاصان ، لذلك الرجل ، الذى يجلس فى المقعد الخلفى ، مرتديًا منظارًا أكثر فخامة ، وممسكًا سيجارًا كوبيًّا فاخرًا ، ينفث دخانه فى مزيج من العظمة والاستهتار ، وهو يتطلّع إلى الطريق ، وكأنما اختاره لنزهته ..

وكان من السهل للغاية ، أن يتعرّف الجميع ذلك الرجل ..

لقد كان الزعيم ..

(أبل كوربوف) ، زعيم (المافيا) الروسية ..

شخصيًا ..

لم يكن معظمهم قد شاهده شخصيًا أبدًا ، إلا أن عشرات التحقيقات الصحفية ، التى ملأت الصحف عنه ، امتلأت بصوره ، على نحو جعله أشبه بنجوم المجتمع ..

مجتمع الشر ..

وفى رعب واضح ، تجمّد معظمهم فى مكانه ، فى حين أسرع الباقون الخطى ، فى محاولة للخروج من الحى كله ، قبل أن يجلب وجود (كوربوف) كل عنف الدنيا إليه دون إنذار ..

« سنقف هنا .. »

نطقها (كوربوف) فى صرامة خشنة ، فتوقّفت السيارة على الفور ، إلى جوار ملهى كبير سيئ السمعة ، ليهبط منها وهو فى عظمة وغطرسة ، ويتلفت حوله ، وكأنه يريد أن يتأكد من أن الجميع قد رآه جيدًا ، ثم يتجه إلى ذلك الملهى ويدفع بابه بقدمه ، قبل أن يدخله كالطاووس .

وفى ارتياع ، هرع إليه مدير الملهى ، هاتفًا فى ترحاب مرتجف .

- سيّد (كوربوف) .. مرحبًا .. كم يشرفنا حضورك إلى ملهانا المتواضع .

قال (كوربوف) فى غلظة :

- أنت على حق .. إنه متواضع أكثر مما ينبغى .

انحنى الرجل أمامه ، وهو يقول :

- لقد أعددنا مائدتك المفضّلة أيها الزعيم ، منذ بلغنا أنك ستعود إلى ما توقّفت عنه منذ زمن ، وتزور ملهانا .

انعقد حاجبا (كوربوف) فى شدة ، وهو يقول فى غضب وحشى :

- أتريد أن تقول بأن هناك خائنًا بين رجالى ، ينقل إليكم أخبارى ؟!..

هتف الرجل فى ذعر :

- لا شأن للأمر بالخيانة أيها الزعيم .. لقد أرادوا تنبيهنا ، حتى نستعد لاستقبالك على النحو اللائق .

قالها ، وانحنى مرة أخرى ، وهو يشير إلى مائدة فى الركن ، تجمعّت حولها بعض الحسناوات ، فزمجر (كوربوف) ، وهو يتجه إليها ، قائلاً :

- اصرفهن فورًا .. أريد أن أجلس وحدى .

أشار الرجل إلى الحسناوات بالانصراف فى توتر ، وهو يتبعه ، قائلاً :

- كما تأمر أيها الزعيم العظيم .. ما تأمر .

جلس (كوربوف) عند المائدة ، ورفع قدميه عليها فى وقاحة ، قائلاً :

- المعتـاد .

هتف الرجل فى خضوع ، وهو يعدو مبتعدًا لتنفيذ الأمر :

- كما تأمر أيها الزعيم .. كما تأمر .

وفى لا مبالاة عجيبة ، راح (كوربوف) يتابع فقرات الملهى ، وحركة رواده ، وهو يداعب تلك المنفضة الذهبية أمامه ، وقدماه تهتزان فى إيقاع شبه منتظم فوق المائدة ، و ...

« دون حراسة ؟!.. يا للجرأة !!.. »

سمع (كوربوف) العبارة ، فأدار عينيه فى بطء ، ورفعهما إلى صاحبته ، ولم يكد بصره يرتطم بوجه (سونيا) ، حتى ابتسم فى شراسة ، قائلاً :

- لن يفوق هذا جرأة ظهورك هنا ، والجميع يسعى خلفك أيتها الفاتنة .

جلست (سونيا) أمامه ، وهى تقول فى برود ، وتنفث دخان سيجارتها الطويلة فى بطء :

- عظيم . هذا يعنى أن كلينا يتمتع بجرأة لا يحسد عليها .

ثم زمجرت فى شراسة ، مستطردة :

- وأنزل قدميك عن المائدة ، عندما تتحدَّث إلى سيِّدة .

أطلق (كوربوف) ضحكة ساخرة عالية ، دون أن ينزل قدميه ، وهو يقول :

- سيِّدة أم زعيمة منافسة ؟

مالت نحوه ، حتى ملأ عطرها أنفه ، وهى تقول فى صرامة :

- كان الأفضل لك أن تتحدَّث عن السيِّدة ، فالزعيمة أكثر صعوبة .

سألها ، وهو يهز قدميه فى وجهها فى تحدٍّ :

- فى أنها أكثر صرامة ؟!

قالت ، وهى تتطلَّع إلى عينيه مباشرة :

- كلاً .. فى أن الزعيمة لديها رجال أقوياء أشداء ، يحيطون بك الآن من كل جانب ، وأحدهم يجيد التصويب إلى درجة مدهشة ، ويمكنه إصابة ذبابة على أنف كلب مسعور ، دون أن يوقظه من سباته .

ثم مالت نحوه أكثر ، متابعة فى خشونة :

- وهو يصوِّب بندقيته نحو جبهتك ، منذ دقيقة تقريبًا ، فى انتظار أوامرى .

وتراجعت تردف فى صرامة :

- هل أشير إليه ؟

ارتبك (كوربوف) على نحو ملحوظ ، واعتدل وهو ينزل قدميه عن المائدة ، ويتلفَّت حوله فى عصبية ، قائلاً :

- وكيف عرفت ...

قاطعته فى صرامة ، تحمل لمحة ساخرة ظافرة شامتة :

- أنك هنا ؟!.. لم يكن الأمر عسيرًا ، أيها التافه المغرور ، فرجالك أبلغوا الملهى أن يستعد لاستقبالك وجواسيسى هنا أبلغونى بالأمر ، فأنا أضع جواسيسى فى كل مكان تذهب إليه ، أو كنت تذهب إليه .

وتراجعت أكثر ، لتستند إلى مقعدها فى زهو ، مستطردة :

ـ فقد اعتدت أن أعمل وفق نظام دقيق وخطة محكمة ، وليس على نحو عشوائى همجى ، كما اعتدت أنت .

ضاقت عيناه ، وهو يقول :

ـ هل تعتقدين هذا ؟!

قالها ، وانفجر فجأة فى ضحكة ساخرة ، عالية ، مجلجلة ..

ضحكة جعلت الجميع يلتفون إليه فى دهشة ، وجعلت حاجبى (سونيا) ينعقدان فى توتر متسائل ، قبل أن يأتى دوره ليميل هو نحوها ، وهو يقول فى سخرية :

ـ كنت واثقًا من أن ظهورى العلنى على هذا النحو السافر ، سيغريك بالظهور ، مع تلك الفكرة المريضة فى عقلك الشيطانى .

قالت فى عصبية :

ـ لا تقل لى أنك ...

قاطعها فى حزم :

ـ تعمدت هذا ؟!.. نعم يا فاتنتى .. لقد سرّبنا الخبر عمدًا ، عندما علمت أنك هنا ، وقدّرت أنك تسعين لاسترداد سلاحك الصغير .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف فى شماتة :

ـ الذى أصبح ملكى الآن .

قالت فى حدة :

ـ مؤقتًا .

هزّ كتفيه فى استهتار ، قائلاً :

ـ من يدرى ؟!.. كنت منذ لحظات تتباهين بأنك الأكثر ذكاء وتفوقًا ، والآن تدركين أن لعبتى خدعتك ، ودفعتك للخروج من جحرك ، الذى كنت أجهله ، وها نحن ذا ، نجلس قبالة بعضنا ، فى المكان الذى اخترته أنا .

قالت فى صرامة :

ـ والذى أسيطر عليه أنا .

عاد يهزّ كتفيه بنفس الاستهتار ، وهو يقول :

ـ لو أنك تتصوّرين هذا حقًا ، مُرِى رجلك بإطلاق النار على رأسى .

ثم عاد يميل نحوها ، قائلاً فى سخرية :

- وستفقدين سلاحك إلى الأبد .

بدت غاضبة فى صمتها ، الذى استغرق دقيقة كاملة تقريبًا ، وكأنها تعيد حساباتها كلها ، قبل أن تقول فى بطء حذر ، دفعت إليه أكبر قدر ممكن من الصرامة :

- لا تنس أننى أعرف موقع الوكر جيدًا ؛ لأنه وكرى أنا فى الواقع .. أنا شيدته ، وأنفقت المليارات لإنشائه وتجهيزه ، ونقل وتركيب ذلك السلاح فيه ، و ...

قال مقتحمًا حديثها :

- وتأمينه .

انعقد حاجباها أكثر ، وهى تحدق فيه ، فلوّح بذراعه فى استهتار ، وهو يتراجع ، قائلاً :

- لن تتركى مكانًا كهذا دون تأمين .

قالت فى بطء :

- بالطبع .

وعادت إلى صمتها الغارق فى التفكير لحظات أخرى ، ثم اعتدلت فجأة ، قائلة :

- اسمعنى جيدًا يا (كولوف) ، أو (كوربوف) ، أو أيهما يحلو لك .. ربما تملك السلاح بالفعل ، ولكنك ستعجز عن تشغيله واستخدامه ، دون المعادلة الأخيرة ، التى أمتلكها أنا ..

قال فى لا مبالاة :

- يكفى أن يعلم العالم أننى أمتلكه .

هزّت رأسها نفيًا ، قائلة فى صرامة :

- كلاً .. لا يكفى . لا بد أن يشاهد العالم تجربة عملية لذلك السلاح .. (أمريكا) لم تكن لتحكم العالم ، لو أنها أخبرته فحسب أنها تمتلك قنبلة نووية ، ولكن عندما أزالت (هيروشيما) و(ناجازاكى) من الوجود ، فى نهاية الحرب العالمية ، وصلت الرسالة إلى العالم ، وأدرك أن (أمريكا) صارت أقوى دولة ، وتمتلك أقوى سلاح معروف .

قال ، وكأنه يشاركها التفكير :

- ولكننى لا أستطيع أن أجرى تلك التجربة دون المعادلة الناقصة .

قالت فى حزم :

- وأنا لا أستطيع أن أجريها ، دون السلاح نفسه .

صمت لحظات ، وهو يتطلّع إليها ، قبل أن يسألها :

- وماذا تقترحين ؟!

أجابته بسرعة ، كما لو أنها كانت تنتظر الجواب :

ـ تحالفًا .. تحالفًا بينى وبينك .

صمت لحظات ، ثم قال فى بطء :

ـ تحالفًا يعنى أن نعمل معًا .

رفعت إبهامها ، قائلة :

ـ بالضبط .

أضاف فى لهجة ذات مغزى :

ـ وأن نتبادل المعلومات .

صمتت لحظة ، قبل أن تجيب فى حذر :

ـ لو أن كل طرف لديه ما يتيح له التبادل .

صمت كلاهما هذه المرة ، وهما يحدّقان فى عيون بعضهما ، قبل أن يسألها (كوربوف) فجأة :

ـ أين تحتفظين بتلك المعادلة يا (سونيا) ؟!

قبل أن تجيب ، أو تبدى حتى أى رد فعل ، ظهر (جوركى) عند مدخل الملهى ، وهو يهتف فى غضب :

ـ ها هو ذا .

التفتت إليه (سونيا) ، فى حركة حادة ، وأدهشها أنه يشير نحو (كوربوف) الجالس أمامها ، ولكن دهشتها هذه لم تلبث أن تحولت إلى ذهول تام ، عندما برز رجل آخر من خلف (جوركى) ..

آخر رجل يمكن أن تتخيَّل رؤيته على الإطلاق ..

(أبل كوربوف) .. زعيم (المافيا) الروسية ..

شخصيًا .

* * *

7 ـ كـوربـوف ..

ارتفع حاجبا الجنرال (ماليكوف) فى دهشة ، وهو يقول لرجلـه (فيدور) ، فى عصبية ، بلغت حد الانتفاض :

ـ البريطانيون يطلبون مقابلتى ؟!.. أنا ؟!

أجابه (فيدور) فى قلق واضح :

ـ إنهم يحملون أوراقًا رسمية ، وموافقـة من الرئيس شخصيًا ، ويطلبون مقابلتك على وجه السرعة .

التقى حاجبا (ماليكوف) ، وهو يقول :

ـ كم رجلاً هم ؟!

أجابه فى سرعة من ينتظر السؤال :

ـ اثنـان .

سأله (ماليكوف) فى اهتمام :

ـ هل ذكرا اسميهما الفعليين أم ...

لم يتم السؤال ، ولكن (فيدور) فهمه ، وقال فى بطء :

ـ سير (ويليام) ، ومساعده (جون) .

تراجع (ماليكوف) فى مقعده ، وهو يغمغم :

ـ سير (ويليام) .. من التحالف !!.. كان يمكنه أن يكتفى باتصال هاتفى ، فلماذا ..؟!

مرة أخرى لم يكمل السؤال ، وغرق فى التفكير لحظـات ، فتساءل (فيدور) فى شىء من الحذر :

ـ هـل ..

قاطعه (ماليكوف) فى سرعة وحزم :

ـ دعهما يدخلان .. فورًا :

أدّى (فيدور) التحية العسكرية ، على غير المعتاد فى أجهزة المخـابرات ، وغادر مكتب (ماليكوف) على الفور ، وبعدها بثوان قليلة ، دخل سير (ويليام) ، وهو يقول ، ببرود بريطانى تقليدى :

ـ لم يكن من المتفق عليه أن نلتقى فى مكتب أحدنا .

غمغم (ماليكوف) ، فى صوت أقرب إلى الزمجرة :

ـ لهذا أدهشنى قدومكما .

قال (ويليام) فى هدوء :

ـ لو لم يكن الأمر عاجلاً وشديد الخطورة لما أتينا .

التقى حاجبا (ماليكوف) الكثان ، وهو يميل نحوهما ، متسائلاً :

ـ وما الأمر العاجل شديد الخطورة ؟!

أجابه (جون) هذه المرة ، فى انفعال واضح :

ـ (أدهم صبرى) هنا .

ارتدّ (ماليكوف) بحركة حادة ، كما لو أن العبارة قد لطمته فى عنف ، واتسعت عيناه وهو يحدّق فى (ويليام) و(جون) ، قبل أن يهتف :

ـ هنـــا ؟!

قال سير (ويليام) ، فى لهجة ذات مغزى مقصود :

ـ وبعلم ومعرفة الأمريكيين .

أضاف (جون) مزمجرًا :

ـ ومباركتهم .

تضاعفت صدمة (ماليكوف) ودهشته ، حتى إنه ظلّ صامتًا لنصف دقيقة ، نقل خلالها بصره بين (ويليام) و(جون) ثلاث مرات على الأقل ، قبل أن يسأل :

ـ وما مصلحة الأمريكيين فى هذا ؟!.. ولماذا لم يعلنوا لنا الأمر ، ما دمنا رسميًا فى تحالف خاص بالقضاء عليه ؟!

قال (ويليام) فى حزم :

ـ ليست لدينا إجابات على هذه الأسئلة حاليًا ، ولكننا هنا لضمان استمرار التحالف بيننا ، نحو الهدف نفسه ، حتى لو تراجع الآخرون .

قال (ماليكوف) فى حذر :

ـ على الرغم من أنكم تعتبروننا من الأعداء ، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية .

قال (ويليام) ، فى شىء من الصرامة :

ـ المصالح المشتركة قد تصنع تحالفًا خاصًا ، فى ظروف بعينها .

مطّ (ماليكوف) شفتيه ، وقال :

ـ ربما .. السياسة تثير نقمتى دومًا .

ثم لوّح بيده فى سخط واضح ، مردفًا :

ـ ولكنكم حصلتم على موافقة الرفيق .. أقصد الرئيس .

لم يفت هذا التضاد على (ويليام) و(جون) ، ولكنّ كليهما تظاهر بأنه حتى لم يلحظه ، و(ماليكوف) يميل نحوهما ، متسائلاً :

ـ باختصار وتركيز .. ماذا تطلبان ؟!

قال (ويليام) فى سرعة :

ـ فريق من قواتنا الخاصة ، سيصل إلى (موسكو) خلال أقل من ساعتين ، نريد الإذن بأن يعمل على أرضكم .

ومع نظرة الاستنكار ، التى تفجَّرت فى عينَىْ (ماليكوف) ، استدرك (ويليام) فى سرعة :

ـ من أجل تحقيق هدف التحالف .

زمجر (ماليكوف) ، وهو يقول :

ـ قواتنا تكفى .

أشار (ويليام) بسبَّابته ، قائلاً :

ـ كان هذا جزءًا من خطة التحالف .. أم إنك قد نسيت .

اعتدل (ماليكوف) ، وبدا شديد الصرامة ، وهو يهمّ بقول شيء ما ، ولكن (فيدور) دخل مكتبه فى هذه اللحظة ، وهو يقول فى توتر :

ـ الكولونيل (سميث) ، من المخابرات الأمريكية ، يطلب مقابلتك على وجه السرعة ياسيِّدى الجنرال ، ولقد تضاعف مطلبه وإصراره ، عندما علم بوجود البريطانيين هنا .

تبادل (ويليام) و(جون) نظرة عصبية قلقة ، فى حين ضرب (ماليكوف) سطح مكتبه بقبضته ، وهو يقول فى حدة :

ـ عظيم .. يبدو أن معركة التحالف قد انتقلت رسميًا وفعليًا إلى أرضنا .. إلى (روسيا) .

وكان قوله هو الحقيقة ..

بعينها ..

★ ★ ★

من المؤكد أن المفاجأة كانت صاعقة ، بالنسبة للجميع ..

(سونيا) ..

ورواد الملهى ..

و(جوركى) ..

وحتى (كوربوف) نفسه ..

(كوربوف) الحقيقى ..

وفى لحظة واحدة ، التفتوا جميعهم إلى (أدهم) ، الذى ينتحل شخصية (كوربوف) ، والذى نجح فى خداع (سونيا) ، وحصل منها على بعض ما يريد من معلومات ..

والذى ابتسم فى سخرية ، مع ظهور (كوربوف) الحقيقى ، وهو يقول :

ـ إذن فقد وصل الوغد .

استدارت (سونيا) فى سرعة ، حطمت بها دهشتها ، وهى تصرخ فى قناصها ، الذى يختفى عند شرفة الطابق الثانى :

ـ أطلق النـار .

وقبل حتى أن تكتمل صرختها ، ضغط القناص زناد بندقيته ..

وانطلقت الرصاصة ..

ولقد كان بالفعل قناصًا لايشق له غبار ..

ولا يخطئ هدفه ..

أبـدًا ..

ولكن مشكلته الوحيدة هى أنه بشرى ..

بشرى عـادى ..

فهناك ـ علميًا ـ ما يعرف باسم (المعادلة العصبية) ، وهى تلك الفترة التى تمضى بين سماع أمر ما ، وإصدار إشارة من المخ للأطراف بتنفيذه ..

ولقد فعلها القناص بأسرع ما يمكنه ..

ولكن جسده استجاب لمعادلة عصبية . لاسيطرة له عليها ..

معادلة تطوَّرت عبر الزمن ، فى جسد رجل آخر ..

رجل المستحيل !..

فمع أوَّل حرف من صرخة (سونيا) تحرَّك (أدهم) ..

وتحرَّك (جوركى) ..

وكل رجال (كوربوف) .

وعندما انطلقت رصاصة القناص نحو الهدف ، كان الهدف قد ابتعد ..

وبمتر كامل على الأقل ..

لقد وثب (أدهم) عبر المائدة ، فى سرعة مذهلة ، وضرب طرفها بقدمه ، فدفعها نحو (سونيا) ، لترتطم بهـا ، وتسقطها أرضًا ، فأطلقت سبابًا ساخطًا ، ورصاصة قناصها ترتطم بالمائدة ، على مسافة سنتيمترات قليلة من رأسها ..

وبينما ينطلق سبابها ، كان (أدهم) يقفز مرة أخرى فى الهواء ، ويدور حول نفسه فى مشهد مذهل ؛ ليهبط بين رجال (كوربوف) ، الذين استلوا مسدساتهم ، وركل اثنين منهم فى أنفيهما ، وقبل حتى أن تستقر قدماه على الأرض ..

وفى دهشة وخوف ، تراجع (كوربوف) ، وهو يحدق فيما يحدث فى ذهول ..

لقد كان (أدهم) يتحرك فى سرعة مدهشة ، وكأن كيانه قد حمل خفة فهد ، وقوة أسد ، وخبث ثعلب ، ومرونة غزال ..

كان يضرب هنا وهناك ، ويدور حول نفسه ، ويثب فوق الرءوس ، وكأنه ألف مقاتل ، وليس رجلاً واحدًا ..

وبكل غضب الدنيا ، صرخت (سونيا) فى قناصها :

- لا تتوقف يا رجل .. أطلق النار .. اقتله .

أطاعها القناص ، وراح يطلق النار ..

ويطلق ..

ويطلق ..

ولكن المشكلة أن الهدف لم يكن يستقر ، ولا حتى لجزء من الثانية ..

لذا ، فقد راحت الرصاصات تصيب رجال (كوربوف) ، الذين ارتبكوا ، ما بين محاولة اقتناص (أدهم) ، ومحاولة الرد على تلك الرصاصات ..

ووسط كل هذا ، ولأنه الوحيد الذى ظل متماسكًا لأعصابه ، فقد وثب (أدهم) ، ودار حول نفسه كلاعب سيرك محترف ؛ ليتجاوز رجال (كوربوف) ، ويهبط خلف (جوركى) ؛ وبينه وبين (كوربوف) نفسه ، فاستدار إليه (جوركى) فى عصبية ، وهو يصوِّب إليه مسدسه ، صارخًا :

- لن يمكنك أن ....

قاطعه (أدهم) بلكمة كالقنبلة ، أطاحت به لثلاثة أمتار على الأقل إلى الخلف ، وكادت تخلع عنقه ، قبل أن يرتطم بعدد من رجال (كوربوف) ، ويسقط معهم أرضًا فى عنف ..

أما (كوربوف) نفسه ، فقد تراجع بحركة حادة ، عندما رأى ما فعله (أدهم) برجاله ، وحاول أن يسحب مسدسه ، وهو يهتف :

- مستحيل !

ولكن (أدهم) أمسك معصمه بحركة سريعة ، وهو ينظر فى عينيه مباشرة ، قائلاً فى لهجة عجيبة ، هى مزيج من الصرامة والسخرية والوعيد :

- هل تعتقد أنك تستطيع .

ثم أتبع عبارته بثلاث لكمات متوالية سريعة ، أطلقها فى أنف (كوربوف) وفكه ، قبل أن يمسك ياقته ، ويرفعه خلف كتفه فاقد الوعى ..

ومن موقعه ، رأى (جوركى) ماحدث ، ورأى رجال (كوربوف) ينهضون ، ويسحبون أسلحتهم ، ويصوّبونها إلى (أدهم) ، فصاح فيهم :

ـ الزعيم معه أيها الأغبياء .

ولكن (سونيا) وثبت من فوق المائدة ، واندفعت نحوهم ، صارخة :

ـ أطلقوا النار .. أطلقوا النار .

ولكن (أدهم) منحها ابتسامة ساخرة ، واندفع بحمله خارج الملهى ، فى نفس اللحظة التى توقّفت فيها (منى) بسيارة روسية أمامه ، وهى تهتف :

ـ أسرع .. الشرطة فى طريقها .

ألقى (كوربوف) الفاقد الوعى داخل السيارة ، ثم قفز إلى المقعد المجاور لها ، فانطلقت هى بسرعة كبيرة ، جعلت إطارات السيارة تطلق صرخة عالية ، امتزجت بصوت أبواق سيارات الشرطة ، التى تندفع إلى المكان ، إثر الإبلاغ عن تبادل إطلاق النيران فى الملهى .

وعلى الرغم من أبواق سيارات الشرطة ، اندفع رجال (كوربوف) خلف (أدهم) ، وراحوا يطلقون النيران على السيارة ، واخترقت رصاصاتهم زجاجها الخلفى ، قبل أن تنحرف بها (منى) عند الناصية ، فصاح (جوركى) فى الرجال :

ـ خلفه .. انطلقوا خلفه .. لن نسمح له باختطاف الزعيم .

انطلقت ثلاث سيارت قوية رباعية الدفع ، خلف السيارة التى تقودها (منى) ، واندفعت خلفها أربع سيارات شرطة ، وهى تطلق سرينتها على نحو مزعج ، لتبدأ واحدة من أعنف المطاردات فى تاريخ (موسكو) كله .

وعند باب الملهى ، خرجت (سونيا) ، وهى بادية الغضب والسخط ، ومعها رجال (دونا) ، وسألها أحدهم فى حماس :

ـ هل ننطلق خلفه ؟!

صمتت لحظة مفكرة ، ثم قالت فى حزم :

ـ كلاً ، سنتركه لهم .

ثم انعقد حاجباها ، وهى تضيف ، فى صرامة مخيفة :

ـ فأمامنا عمل آخر أكثر أهمية بكثير .

قالتها ، وذهنها يعدُّ خطة جديدة ، من وحى الموقف ..

خطة لاستعادة السيطرة ..

على العالم ..

* * *

على الرغم من أن الموقف يتنافى مع كل ما أخبروه به ، عن دقة وقوة وسائل الأمن والتأمين فى المزرعة ، لم يشعر (توركنيف) بدهشة كبيرة هذه المرة ، عندما وجد (يورى) أمامه ، داخل المعمل الكبير ..

فقط قال ، فى لهجة خلت من المشاعر أو كادت :

- هل أتيت مرة أخرى ؟!

أجابه (يورى) فى هدوء :

- بالتأكيد .

ثم رفع أمامه جهازًا إلكترونيًا صغيرًا ، أشبه بهاتف خلوى ، وهو يضيف :

- مع هذا .

سأله (توركنيف) بفضول عالم :

- وما هذا بالضبط ؟!

أجابه (يورى) ، وهو يلوّح بالجهاز :

- الإشارات التى تتحكّم فى سوارك هذا ، إشارات لاسلكية رقمية حتمًا .

غمغم (توركنيف) ، وفضوله يتزايد :

- بالتأكيد .

أدنى (يورى) الجهاز منه ، وهو يقول :

- هذا الجهاز هو لاقط إشارة رقمى ، يمكنه التقاط كل إشارة رقمية حولنا ، وبوساطته سنعرف تردُّد الإشارة ، التى تتحكّم فى سوارك .

قال (توركنيف) فى عصبية :

- هناك كود سرى للتشغيل .. كود مشفَّر .

ابتسم (يورى) ، وهو يقول :

- هذه واحدة من مهام الجهاز الأساسية .. تحليل وفك كل الأكواد المشفَّرة .

حدّق (توركنيف) فى الجهاز لحظات ، قبل أن يقول فى عصبية :

- هل تعلم ماذا يمكن أن يحدث ، لو فشلت لعبتك ؟!

قال (يورى) فى حزم وثقة ، وهو يضغط زر تشغيل الجهاز :

- لن يفشل .

أضاءت شاشة الجهاز ، وراحت أرقام عديدة تتراص عليها فى سرعة ، وترسم ما بدا أشبه بكود سرى ، و ...

وفجأة ، انطلقت صفارات الإنذار فى المكان ، وراح سوار (توركنيف) يتألق على نحو متسارع ، فصرخ هذا الأخير فى ارتياع :

ـ لقد أشعلته .. لقد أشعلته .

تلفت (يورى) حوله فى ارتباك شديد ، ثم ضغط زر الجهاز فى عصبية ، وهو يقول فى انفعال :

ـ مستحيل !.. كان ينبغى أن يعمل .

صرخ (توركنيف) ، وجسده ينتفض فى شدة :

ـ لقد أشعلته .. لقد قتلتنى .

ثم اتسعت عيناه ، وانتفض جسده مرة أخرى بمنتهى العنف ، كما لو أنه قد تلقى صدمة كهربية عنيفة ، وأطلق شهقة مكتومة ، قبل أن يسقط أرضًا فاقد الوعى ..

ولثانية أو ثانيتين ، حدّق فيه (يورى) ، ثم اندفع يغادر المعمل ، وهو يهتف :

ـ سأعود .

ولكنه كان يدرك أن التجربة قد أثبتت أن الحصول على المعادلة الناقصة أمر عسير ..

عسير إلى أقصى حد ..

* * *

« سنتبادل المقاعد .. »

قالها (أدهم) فى حزم ، فور انحراف (منى) بالسيارة عند الناصية ..

ودون تبادل كلمة واحدة ، وبأسلوب من الواضح أنهما قد تدربا عليه كثيرًا ، تبادل الاثنان أماكنهما ، والسيارة تنطلق بأقصى سرعتها ..

لقد أمسك هو عجلة القيادة ، وظلت هى تضغط دوّاسة الوقود بقدمها اليسرى ، وهى تدفع جسدها ، بينه وبين الواجهة الداخلية ، إلى المقعد الأيمن ، فى نفس الوقت الذى مر هو فيه خلفها إلى المقعد الأيسر ، وما إن بلغه ، حتى استبدل قدمه بقدمها ، على دوّاسة الوقود ، وزاد من سرعة السيارة ، وهو يمسك المقوَد بيديه فى قوة ..

كان ذلك الجيش من السيارات ينطلق خلفه ، كلها سيارات تفوقه قوة بمرتين على الأقل ..

ولكنه كان يفوق كل قادتها براعة ، ويتجاوزهم خبرة بعدد لاحصر له من المرات ..

لقد انطلق وسط شوارع السوق المزدحمة ، فقفز فوق الأرصفة ، وعبر أماكن شديدة الضيق ، وتجاوز منحنيات حادة ..

وكل هذا دون أن يخفض من سرعته لحظة واحدة ..

وفى محاولة لإحكام السيطرة والحصار ، اتخذت سيارات رجال دونا الثلاث تشكيلاً ثلاثيًا ، فانطلقت إحداها خلفه ، وعبرت الثانية إلى يمينه ، والثالثة إلى يساره ..

وعلى الرغم من ازدحام المكان ، صوَّب إليه الرجال أسلحتهم .. وأطلقوا النـار ..

« اخفضى رأسكِ .. »

هتف (أدهم) بالعبارة فى قوة ، فانحنت (منى) فـى سرعة ، فى حين ضغط هو دوَّاسة الفرامل ، فانخفضت سرعة السيارة على نحو مباغت ، حتى كادت السيارة التى خلفها ترتطم بها ، ولكن ما إن تجاوزت مقدِّمة سيارة (أدهم) مؤخرة السيارة التـى إلى يساره ، حتى دار بها فى سرعة ومهارة ، ويداه تسيطران علـى عجلة القيادة فى قوة وبأس ، ليتجاوز السيارة التى خلفه ، ويعبر إلى جوارها ، ليواصل انطلاقته ، فى الاتجاه العكسى ..

تلك المبادرة الجريئة المباغتـة أربكت السيارات الثلاث رباعيـة الدفع ، فضغط قادتها فراملها بحركة غريزيـة ، وانطلق الصرير يغمر الشـارع كلـه ، قبل أن ترتطم السـيارة الخلفيـة بالسـيارة اليمنى ، التى حاولت الانحراف خلف (أدهم) ..

ومالت السيارة اليسرى بحركة حادة ، فارتطمت باليمنى ..

ومع صرخات المارَّة ، والفوضى العنيفة ، التى سادت المكـان ، لم تعد السيارات الثلاث قادرة على مواصلة المطاردة ، فهتف أحد ركابها بـ (جوركى) :

ـ الزعيم .. الزعيم معه .

انعقد حاجبا (جوركى) فى شدة ، وهو يقول :

ـ سنتركه له .

اتسعت عينا الرجل فى ذهول ، وهو يهتف مستنكرًا :

ـ نتركه ؟!

صاح فيه (جوركى) فى صرامة :

ـ لقد سمعتنى .

وتابع ببصره سيارة (أدهم) ، وهى تنطلق فى مواجهة سيارات الشرطة الأربع مباشرة ، قبل أن يكرِّر :

ـ سنتركه لهم .

ولم يفهم الذاهل ما يعنيه هذا ...

لم يفهم أبدًا ..

أما (أدهم) نفسه ، فقد انطلق بأقصى سرعته ، فـى مواجهـة سيارات الشرطة الأربع ، التى أربكها هذا الموقف الانتحـارى ، فتفرَّقت على نحو غريزى ، حتى لا تصطدم به ..

ولكن (أدهم) لم يبلغها قط ..

لقد واصل انطلاقته ، حتى بلغ سـاحة جانبيـة لانتظار السـيارات ، فانحرف إليها فجأة بحركة حادة ، أطلقت صريرًا آخر أكثر عنفًا ..

وعلى الفور ، انحرفت سيارات الشرطة الأربع خلفه ..

ثم ارتبك سائقوها بشدة ..

فأمام عيونهم ، لم تكن هناك سيارة تنطلق ..

بل خمس :

خمس سيارات ، كلها صورة طبق الأصل من بعضها ، حتى فى أرقامها ، وتلك الخدوش القديمة عند مؤخرتها ..

ولقد انطلقت كل سيارة منها فى اتجاه مختلف ..

مختلف تمامًا ..

ومع الارتباك العنيف ، وعدم القدرة على اتخاذ قرار سريع ، دون الرجوع إلى القيادة ..

وأمام عيونهم القابضة ، راحت السيارات الخمس تبتعد ..

وتختفى ..

وتذوب ..

تمامًا ..

★ ★ ★

كادت أصابع (راءول) تعتصر سماعة هاتف ذلك المنزل السرى ، الذى يقيم فيه فى (لينتجراد) ، وهو يهتف فى عصبية لامحدودة :

- مستحيل !.. (فرتيوالبيتى) لم يضع خطة كهذه قط !

استمع مرة أخرى إلى محدثّة ، الذى ينقل إليه تفاصيل ما حدث فى (موسكو) .

- مستحيل !.. هذا ليس أسلوبه .. ليس أسلوبه أبدًا .

أنهى المحادثة ، وراح يفكّر فى عصبية ، وهو يدور فى المكان كالذئب الجريح ، قبل أن يتوقّف محدثًا نفسه :

- نعم ، هذا ليس أسلوبه .. لقد فعلها ذلك الثعلب .. أدرك أننا نستخدم (فراتيوالبيتى) لمطاردته ، فلجأ إلى أذكى أسلوب لإفساد مفعوله ..

وتوقّف عند هذه الكلمة لحظات ، والغضب والغيظ يملآن وجهه ، قبل أن يضيف فى سخط :

- اختار شخصًا غيره ؛ ليضع له خططه .

عاد يتحرّك فى المكان بنفس العصبية ، مردّدًا :

- شخص لا تعرف من هو ، ولا يمكننا استنتاج أسلوبه ، حتى لو استخدمنا ألف ألف (فرتيوالبيتى) .. يا له من شيطان !

كان الغضب يتفجَّر فى كل خلية من خلاياه ، وهو يحاول أن يعتصر عقله ..

ويعتصره ..

ويعتصره ..

المشكلة كلها تكمن فى سؤال واحد ..

من ؟!..

من ذلك الشخص ، الذى يرسم له خططه هناك ..

فى (موسكو) ..

من هو ؟!..

كيف يفكِّر ؟!..

ما هو أسلوبه ؟!

كان يدرك أهمية وخطورة الحصول على هذه الأجوبة ، حتى يمكنه إزاحة (أدهم) عن الطريق ، فى هذه المرحلة بالذات ..

لقد دفع الجميع خلفه فى البداية ؛ ليبعدهم عن هدفه الأصلى ..

هدف (إسرائيل) ومطمعها ، من قبل حتى أن تنشأ ، على أنقاض وطن محتل ..

حلم التفوّق ..

والسيطرة ..

مرات عديدة سعت إلى هذا ..

وفشلت ..

وإذاء فشلها ، رأت أن أفضل وسيلة للسيطرة ، وهى أن تلعب دور التابع ..

التابع لدولة قوية ..

وهذا ما فعلته ، منذ سنوات طوال ، وبعد أن أجبرتها القوى نفسها على الانسحاب من (سيناء) ، عام 1956م ..

وعبر دور التابع ، كبرت (إسرائيل) ..

وتطوَّرت ..

وتعملقت ..

ولكن هذا لم يكفها ..

أبدًا ..

لقد ظلت دومًا تحلم بالسيطرة التامة ..

بأن تنتقل من خانة التابع إلى خانة السيِّد ..

سيِّد العالم ..

وها هى ذى فرصة ذهبية تلوح ..

سلاح رهيب ، لم ير العالم مثيلاً له من قبل ، نجحت (سونيا) فى شراء العقول التى ابتكرته ..

فى تصنيعه ..

وتجميعه ..

وإعداده للعمل ..

وفور عمله ، سيعلن ذلك السلاح للعالم أجمع أن عصرًا جديدًا قد بدأ ..

عصرًا لا نحتاج فيه إلى صواريخ ..

أو طائرات ..

أو قنابل ..

حتى القنابل الذرية ..

عصر تأتى القوة فيه من الطبيعة ..

الطبيعة التى لم يهزمها أحد قط ..

ومهما كانت الأسباب والملابسات ، أو أيًا كانت التضحيات والتجاوزات ألا ينبغى أن يعوق شىء ما هذا أبدًا ..

فى حركة سريعة ، التقط سمّاعة الهاتف مرة أخرى ، وطلب رقمًا دوليًا طويلاً ، وما إن سمع صوت محدثّه فى (تل أبيب) ، حتى قال فى صرامة ، امتزجت بعصبية :

ـ اسمعنى جيدًا .. راجع التقرير الذى سيرد إليك من (موسكو) مرتين ، وأرسل كل تفاصيله للخبراء .. كل الخبراء ، أريدهم أن يحددّوا من وضع هذه الخطة بالضبط ، من رجال المخابرات المصريين ، الذين تعاملنا معهم من قبل (*) .. أريد أن يتم هذا بأقصى سرعة .. هل تفهمنى ؟!.. بأقصى سرعة .

أنهى المحادثة ، والغضب فى ملامحه يتزايد ويتضاعف ألف مرة ..

فاللحظة الحاسمة تقترب ، ولا ينبغى أن يعوقها شىء ..

أى شىء ..

أى شىء كان ..

وبأى ثمن ..

أى ثمن كان ..

* * *

(*) عندما تتعامل أجهزة المخابرات مع أسلوب ما ، تنسبه إلى شخص وهمى ، وتطلق عليه اسمًا كوديًا افتراضيًا ، بحيث تصنف أساليب ضباط مخابرات الخصم ، دون تحديد هويتهم ، ويقوم الخبراء بتحديد ضابط الحالة افتراضيًا ، كلما واجهوا عملية ما ، كوسيلة لمعرفة سبل التعامل معه .

مع انفعالها الجارف ، أطلقت (منى) ضحكة عالية ، هاتفة ، وهى تلوّح بيدها ، على نحو طفولى ، لا يتناسب مع مهنتها :

ـ مدهش . الخطة التى وضعها السيّد (حسن) مدهشة وفعّالة ، على الرغم من بساطتها .. لقد أربكتهم تمامًا .

غمغم (أدهم) :

ـ هذا هو .

والتقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يضيف :

ـ لقد أكمل تدريبى ، بعد مصرع والدى .

حدّقت فيه (منى) لحظات ، فى مزيج من التعاطف والإعجاب والتقدير ، قبل أن تربّت على يده ، هامسة فى حنان :

ـ ولقد أحسن كلاهما عمله .

تجمّدت عينا (أدهم) لحظات ، وهو ينطلق بسيارته ، قبل أن يلتفت إليها ، قائلاً فى حنان ، نادرًا ما يترك مشاعره له :

ـ (منى) .. هل ...

قبل أن يتم عبارته ، أحاطت ذراع (كوربوف) بعنقه فجأة من الخلف ، وهذا الأخير يهتف فى شراسة :

ـ معذرة لقطع لحظتكم الرومانسية .

كانت المفاجأة عنيفة قوية ، وعلى الرغم من هذا ، فقد جاء رد فعل (أدهم) بالغ السرعة والقوة ، عندما أدار قبضته خلف ظهره ، ولكم (كوربوف) فى وجهه بكل قوته ..

وصرخ هذا الأخير ، فى مزيج من الغضب والألم ، وهو يسقط على المقعد الخلفى ، فوثبت (منى) نحوه ، فى رشاقة مدهشة ، تجاوزت بها مقعدها الأمامى ، لتنقض عليه فى المقعد الخلفى ، ولكمته على أنفه مباشرة ، وهى تهتف :

ـ هل تصوّرت أن ...

فجأة ، بترت عبارتها ، وهتفت فى ذهول ، فى نفس اللحظة التى أوقف فيها (أدهم) السيارة ، إلى جانب الطريق :

ـ مستحيل !

والتفت إليها (أدهم) فى سرعة ، والتقى حاجباه فى شدة ..

فلقد كانت محقة تمامًا ..

ما يراه مستحيل !..

إلى حد مدهش .

* * *

8ـ لعبة سيطرة ..

لأوّل مرة ، منذ فترة طويلة للغاية ، شعرت الصينية الحسناء (تيا) بتوتر حقيقى ، وهى تقول لـ (سونيا) ، داخل واحدة من طائرات الهليوكوبتر الحربية الست ، التى تنطلق فوق جليد (سيبيريا) :

ـ ما زلت أعتقد أن ما نفعله هو لمحة من الحماقة .

قالت (سونيا) فى صرامة ، دون أن تلتفت إليها :

ـ ربما من وجهة نظرك .

قالت (تيا) متوترة :

ـ بل من أى منطق تشائين .. إننا نهاجم وكرًا أعددته بنفسكِ ، وتدركين مدى قوة وسائله الدفاعية ، وتعلمين جيِّدًا أن إمكانية تجاوزها ضئيلة للغاية ، وقد يتم سحق قوة الهجوم كلها ، حتى قبل أن نصل إليه ، فكيف تجازفين بمهاجمته ، على هذا النحو السافر ؟!

ابتسمت (سونيا) فى سخرية ، دون أن تجيبها ، أو حتى تلتفت إليها ، ولكن زجاج الهليوكوبتر المجاور لها ، عكس ابتسامتها الساخرة ، التى استفزَّت مشاعر (تيا) ، فهتفت مكملة :

ـ ولست أظن الأمر يستحق السخرية .

أجابتها (سونيا) فى صرامة شديدة :

ـ بل يستحقها عن جدارة .

ثم التفتت إليها فى شراسة ، مستطردة :

ـ أنت لا تفهمين شيئًا ، ولكنك قلتها بنفسك .. أنا أعددت هذا الوكر بنفسى ، وأدرك مدى قوة وسائله الدفاعية .

وزمجرت ، قبل أن تضيف :

ـ ونقاط ضعفها أيضًا .

حدَّقت (تيا) فيها لحظات ، ثم قالت فى حدة :

ـ لست أصدِّق أنك تصنعين نظمًا دفاعية ، تحوى نقاط ضعف ، يمكن اختراقها .

أجابتها فى سخرية عصبية :

ـ لأن تفكيركِ ما زال محدودًا .

بدت دهشة مستنكرة على وجه (تيا) ، فتابعت (سونيا) فى غضب :

ـ عندما أتحدَّث عن نقطة ضعف فى نظام ما ، فلست أقصد أنها نقطة ضعف عامة .. إنه نظام وضعته أنا ، ووضعت فيه عن

عمد ثغرة خفيــة ، تحسبًا لأية ظروف غير متوقَّعة ، أو لموقف كموقفنا هذا ، فبعد دقائق قليلة ، وعندما نصبح عند أول نطاق الرصد للجهاز الدفاعى للوكر ، سيتم بث إشارة رقمية ، ذات شفرة شديدة التعقيد ، وفور أن تستقبلها الأجهزة الدفاعية هناك ، سيرتبك نظامها ، وتختل إشارتها ، وتصاب بلوثة إلكترونية ، مما سيربك طاقم الحراسة ، الذى وضعه ذلك الوغد (كوربوف) هناك ، خاصة وأننى قد اخترقت لحظة عدم تواجده أو تواجد مساعده (جوركى) ، وغياب القيادة التام ، وعجز أولئك الذئاب عن اتخاذ قرار حاسم ، فى غياب قائدهم .

صمتت متطلِّعة إلى علامات الانبهار والدهشة ، على وجه (تيا) ، قبل أن تدير عينيها بعيدًا عنها ، قائلة :

- هكذا بكل بساطة .

هتفت (تيا) مبهورة :

- بكل بساطة ؟!

ابتسمت (سونيا) فى شراسة ساخرة ، وهى تقول :

- بالنسبة لعقل كعقلى .

صمتت لحظة ، ثم أضافت فى وحشية :

- عقل زعيمة .

أدركت (تيا) أنه من الخطأ مجادلة (سونيا) ، فى موقف كهذا ، فغمغمت :

- بالطبع أيتها الزعيمة .. بالطبع .

تألَّقت عينا (سونيا) فى ظفر ، ولاذت بصمت مزهو لحظات ، حتى قال طيَّار الهليوكوبتر فى قلق :

- نقطة الصفر يا سيِّدتى !

لم يكد يقولها ، حتى أخرجت (سونيا) من جيبها جهازًا صغيرًا ، به زر واحد فى المنتصف ، ضغطته (سونيا) فى حزم ، وهى تقول :

- سنهبط هنا .

أطاع الطيَّار الأمر فورًا ، وهبط بالهليوكوبتر الرئيسية ، وهبطت خلفها طائرات الهليوكوبتر الخمس الأخرى ، ولم تكد تلامس سطح الجليد ، حتى وثب منها عشرات الرجال المدججين بالسلاح ، وهم يرتدون معاطف بيضاء سميكة ، وأغطية رأس من اللون نفسه ، بحيث كان تمييزهم وسط الجليد المحيط بالمكان أمرًا عسيرًا للغاية ..

وفى حزم قائد ، قالت (سونيا) :

- سنهاجم من ثلاثة اتجاهات ، وفق الخطة التى شرحتها لكم ، وتدرَّبتم عليها قبل قدومنا .

سألها طيّار الهليوكوبتر الحربية الرئيسية :

ـ وماذا عن صواريخنا ؟!.. هل نمهِّد لكم ساحة المعركة بقصف جوى مكثَّف ؟!

هتفت فى شراسة :

ـ كلاّ .

بدت الدهشة على الرجل ، وهو يتراجع بحركة حادة ، فتمالكت نفسها ، قائلة :

ـ لا أحد سيطلق صاروخًا واحدًا على الوكر ، دون أوامر مباشرة منى .. هل تفهم ؟!

غمغم الطيّار ، فى توتر متزايد :

ـ بالتأكيد يا سيِّدتى .. بالتأكيد .

أدركت (تيا) السبب الرئيسى لتوتر (سونيا) ، فأخفت ابتسامتها خلف قناع من البرود الصارم ، حتى أشعلت (سونيا) واحدة من سجائرها الطويلة ، قبل أن تشير إلى ذلك الجيش الصغير من رجال (دوناكارولينا) ، قائلة بلهجة آمرة قاسية :

ـ سنبدأ هجومنا الأرضى .

ثم صرخت بكل قوتها :

ـ هجـوم ..

وبدأت الحرب ..

* * *

سرى توتر عنيف فى حجرة الجنرال (ماليكوف) ، بعد أن انتهى الكولونيل (سميث) الأمريكى من حديثه ، والتفت (جون) إلى سير (ويليام) بنظرة عصبية ، وكأنه ينتظر رأيه فيما قيل ، فى حين انعقد حاجبا (ماليكوف) الكثان فى شدة ، وهو يدير عينيه بين الحضور ، فى نظرة شديدة العصبية ، قبل أن يقول :

ـ الواقع أننى وعلى الرغم من تعليمات السيِّد الرئيس ، عاجز تمامًا عن فهم موقفكم الأمريكى أيها الكولونيل ..

التقط (سميث) نفسًا عميقًا ، وقال :

ـ الموقف أبسط من أن يثير حيرتك على هذا النحو يا سيِّدى الجنرال .

زمجر (ماليكوف) ، وهو يقول :

ـ لقد تحالفتم مع ذلك الشيطان المصرى ، الذى يفترض أننا قد تحالفنا جميعًا للقضاء عليه .

قال (سميث) فى هدوء :

ـ لست أنكر هذا يا جنرال ، ولكن الواقع ، الذى تعلمه جيدًا ، هو أن خطرًا جديدًا قد برز على السطح .. خطر يهدِّد كل القوى .. بل والعالم أجمع .. الإسرائيليون كشفوه ، ونحن عرفناه ، وذلك المصرى قادر على دحره وإنقاذنا وإنقاذ العالم منه .

قال (ماليكوف) فى غضب شرس :

ـ وأين ذهبت قواتنا ؟!.. إننا نستطيع دحر أى خطر ، مهما بلغ ، خلال ساعات محدودة .

ابتسم (سميث) فى سخرية ، لم يستطع كتمانها ، وهو يقول :

ـ سيِّدى الجنرال .. الإسرائيليون يعبثون هنا ، منذ بداية مشروعنا ، ولم تتوصلوا إلى ما يفعلونه بعد ، وزعيم (المافيا) الروسية (كوربوف) يفرض عليكم إرادته ، دون أن تفعلوا له شيئًا .. حتى مقره السرى ، الذى يحوى ما يهدِّد أمن العالم كله ، لم تتوصَّلوا إليه حتى الآن ، فكيف يمكنك أن تقول : إن قواتكم تكفى .

احتقن وجه (ماليكوف) ، وانعقد حاجبا (ويليام) فى تساؤل ، عن كيف عرف الأمريكيون كل هذا ، ولم يشاركونهم فيه ، وتوتَّر (جون) مما سمعه ، ولكن الروسى كان الوحيد الذى تحدَّث ، وهو يقول فى حدة :

ـ وهل ذلك المصرى يكفى ؟!

أجابه (سميث) فى سرعة :

ـ بالطبع .

احتقن وجه (ماليكوف) أكثر ، فاستدرك (سميث) موضحًا :

ـ إن له دهاء ثعلب ، وإرادة نمر ، وقوة أسد .. ثم إنه رجل مجرَّد رجل واحد ، يستطيع التسلُّل إلى أى مكان فى خفة مذهلة ، ودون أن يشعر به أحد ، وملفه يؤكد أنه يستطيع مقاتلة جيش كامل لو أراد ، وهذا يجعله الاختيار المثالى ، فى مثل هذه الظروف .

وهنا ، تحدَّث (ويليام) لأوَّل مرة ، قائلاً :

ـ هل تعتقد أنه سينجح ، فيما قد نفشل نحن فيه ؟!

هزَّ (سميث) كتفيه ، وقال :

ـ لو فعلها سيخلِّصنا من خطر يتهدَّدنا جميعًا ، أما لو فشل ، فهو محسوب على المخابرات المصرية ، ولن يترك تدخله أية ضغائن ، قد تدفع زعيم (المافيا) الروسية للانتقام من أحدنا ، إذا ما فاز فى المعركة .

انعقد حاجبا (ماليكوف) فى شدة ، وهو يحاول استيعاب هذا المنطق ، فى حين تبادل (ويليام) نظرة صامتة مع (جون) ، و(ماليكوف) يقول فى عصبية :

ـ ولو افترضنا أنه ، على الرغم من كل ما تقوله ، فشل فى هزيمة (كوربوف) ، و ...

قاطعه (ويليام) فى حزم :

ـ بل قل ماذا لو افترضنا أنه قد فعلها ، وفاز فى المعركة ؟!

أجابه (سميث) فى سرعة :

ـ ستكون قواتنا فى انتظاره .

سأله (ماليكوف) فى عصبية :

ـ أى قوات ؟!

أجابه فى حزم :

ـ قواتنا كلها يا جنرال .. لو خرج من تلك المهمة ظافرًا وحيًا ، فستكون قواتنا المشتركة فى انتظاره .

ولم يجب أحدهم ، أو يعلّق بحرف واحد ..

فالمشهد ألهب خيال الجميع ، وبعث الدماء الحارة فى عروقهم ..

الحارة جدًا ..

* * *

على الرغم من مخاوف (تيا) الشديدة ، من هذه الخطوة ، التى أقدمت عليها (سونيا) ، والتى بدت لها شديدة الحماقة والتهور ، كان الهجوم على الوكر ناجحًا ، إلى حد مدهش ..

(سونيا) كانت تعرف كل دقائق ذلك المكان ، الذى أنشأته ، وبنت فيه حلمها ، ولم تفقد الأمل قط فى العودة إليه ..

ولقد قادت جيش (دونا كارولينا) الصغير ، إلى مدخل خلفى ، كان يحرسه رجلان فحسب ، ذبح (ماريو) أحدهما ، وسحق (لوتشيانو) الثانى ..

واقتحم الرجال الوكر فى عنف ..

المدهش أن ممراته كانت مفتوحة أمامهم ، دون أن يحرسها رجل واحد ، كما لو أن مناعة المكان جعلت (كوربوف) واثقًا من أن أحدًا لن يبلغه قط ..

وفى توتر شديد ، غمغمت (تيا) :

ـ هذا لا يروق لى .

قالت (سونيا) فى سخرية :

ـ لا شىء يروق لكِ ، منذ بدأنا هذه العملية .

تلفّتت (تيا) حولها فى توتر ، وهى تقول :

ـ انعدام المقاومة التام ، يوحى بأننا ندخل فخًا بأقدامنا .

قالت (سونيا) فى صرامة :

ـ أو أن (كوربوف) هذا قد بالغ فى تقدير قوته ، ومناعة الوكر ، الذى اغتصبه بعد إلقاء القبض علىَّ .

وألقت بقايا سيجارتها فى حنق ، مستطردة :

ـ لقد راهن على أننى لن أعود .

أشعلت سيجارة ثانية ، وهى تطفئ الأولى بقدمها ، مردفة :

ـ وخسر الرهان .

توقَّفت (تيا) عن السير ، وهى تقول فى توتر أكثر :

ـ مازال الموقف كله لايروق لى .

قالت (سونيا) فى حدة :

ـ أنت وشأنك .

ثم اندفعت مع رجال (دونا) نحو القاعة الرئيسية ..

القاعة التى شيَّدت فيها أمل مستقبلها ..

ذلك السلاح ..

أقوى سلاح عرفته الأرض ..

على الإطلاق ..

وعند باب القاعة توقَّف الرجال ، وقال (ماريو) فى قلق :

ـ هل نقتحم المكان ؟!

سحبت (سونيا) مسدسًا ذهبيًا من جيبها ، وهى تقول فى حزم :

ـ وبمنتهى العنف .

شهر الرجال أسلحتهم فى تحفُّز ، و(سونيا) تضيف فى حزم :

ـ عند رقم ثلاثة .. واحد .. اثنان .

صمتت لحظة ، لتشحذ كل إرادتها ، ثم هتفت :

ـ ثلاثة .

وبمنتهى القوة والعنف ، اقتحم رجال (دونا كارولينا) القاعة الرئيسية للوكر ، تقودهم (سونيا) ..

ودوت الرصاصات فى عنف ..

رصاصات انهالت كالمطر ، من كل صوب ، وراحت تحصد رجال (دونا) من حول (سونيا) ، وكأنها آلة حصاد عملاقة ..

لقد كانت الصينية (تيا) على حق ..

إنه فخ ..

رجال (كوربوف) جميعًا كانوا ينتظرونهم هناك ..

فى القاعة الرئيسية ..

وحاولت (سونيا) أن تتراجع ..

حاولت ، ولكن (ماريو) كان خلفها ، يصرخ :

ـ لقد أوقعوا بنا .. أنت قدتنا إلى هنا .. أنتِ أيتها الحقيرة .

كان يرفع يده ، ليهوى عليها بخنجره ، ولكنها أطلقت رصاصة من مسدسها الذهبى ، اخترقت منتصف جبهته ، وهى تقول فى غضب :

ـ هذا جزاء ما نطقت به .

مع سقوط (مارية) ، أغلق باب القاعة خلفها تمامًا ، ووجدت قدميها تسبحان فى بحر من دماء رجال (دونا) ، الذين لقوا مصرعهم عن بكرة أبيهم ، فالتفتت فى شراسة عصبية إلى رجال (كوربوف) ، الذين صوبوا جميعًا أسلحتهم إليها ، دون أن يطلق أحدهم رصاصة واحدة ، فهتفت فى حدة :

ـ ماذا تنتظرون ؟!.. أطلقوا النار .

أتاها صوت ساخر يقول :

ـ ليس دون أوامرى .

التفتت فى سرعة إلى مصدر الصوت ، واتسعت عيناها فى شدة :

فذلك الرجل ، الذى نطق العبارة ، لم تكن تتوقع رؤيته .. ليس فى هذا المكان على الأقل ..

ليس هناك أبدًا !!

بأية مقاييس !!..

* * *

« إنه ليس (كوربوف) » ؟!..

هتفت (منى) بالعبارة فى دهشة ، وهى تحدق فى وجه الرجل ، الذى كانت تقاتله ، والذى انتزعت لكمتها قطعة من قناعه المتقن ، الشبيه بوجه (كوربوف) ، ولم تكد تنتهى من هتافها ، حتى فتح (أدهم) باب السيارة الخلفى ، وانتزع الرجل من عنقه بقوة مدهشة ، وهو يسأله فى صرامة ، وبلهجة تجمدّ الدم فى العروق :

ـ لعبة متقنة أيها الوغد .. أين زعيمك الحقيقى ؟!

كان الرجل ينوى ألا يبوح بحرف واحد ، خاصة أن (كوربوف) قد هدده بالقتل ، وبأبشع وسيلة ، لو باح بحرف واحد ، ولكن نظرة واحدة من عينىَ (أدهم) ، وسماع صوته القادر على تجميد الدم فى العروق ، جعلاه يجيب على الفور :

- إنه هناك .. فى (سيبيريا) ..

سأله (أدهم) بصوت أكثر صرامة :

- هل يحتفظ بسلاحه هناك ؟!

أومأ الرجل برأسه إيجابًا وهو يرتجف ، فهزّه (أدهم) فى قوة ، صائحًا :

- أريد إجابة مسموعة .

قال الرجل فى رعب :

- نعم ، يحتفظ به هناك ، تحت حراسة مشدّدة ، حتى ينجح ذلك العالم فى إيجاد المعادلة الناقصة ؛ لتشغيل السلاح ، وتجربته فى مكان ما ..

كانت مجموعة من المعلومات ، لم يكن يتوقّعها أو ينتظرها (أدهم) ، إلا أن هذا لم يظهر على وجهه قط ، وهو يدفع الرجل داخل السيارة ، قائلاً لزميلته (منى) :

- ستقودين أنت يا عزيزتى ، فلدىّ حديث طويل مع هذا الوغد ، قد يستغرق الطريق كله .. وربما أكثر من هذا .

انتقلت (منى) دون مناقشة إلى مقعد القيادة ، وانطلقت بالسيارة ، فور دخول (أدهم) إلى مقعدها الخلفى ، بصحبة ذلك الرجل ، وهو يقول له ، فى صرامة شديدة للغاية :

- هيا .. قص علىّ قصة حياتك كلها ، وحذار أن تنس حرفًا واحدًا ، وإلا فستعجز أمك نفسها عن أن تعرفك .

ثم انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يضيف :

- هذا لو بقيت حيًّا .

« معلومات مدهشة يا (أدهم) .. »

هتفت (منى) بالعبارة فى انبهار وتوتر ، بعد نصف ساعة فحسب من هذا الموقف ، قبل أن تضيف :

- إنها ترسم أمامنا صورة كبيرة ، لما عليه الموقف كله .

قال (أدهم) ، فى تفكير عميق :

- ولكنها تحوى عدة مشكلات شديدة التعقيد ؛ فذلك السلاح ، الذى تسعى إليه (سونيا) ، وينشده الإسرائيليون ، ويبحث عنه الجميع ، فى قبضة زعيم (المافيا) الروسية ، داخل وكر حصين ، فى قلب (سيبيريا) ، ومجرّد الوصول إليه أمر شبه مستحيل ، ولكن ذلك السلاح تنقصه معادلة ، توجد هناك ، فى (لينينجراد) ، فى عقل عالم روسى ، محاط بنظام أمنى شديد الدقة ، ولا يمكنه مغادرة مكانه ، بسبب سوار إلكترونى ، لا يوجد أى سبيل معروف للخلاص منه ..

غمغمت (منى) :

ـ مشكلات عسيرة بالفعل .

قال (أدهم) ، وهو يجلس على مقعد إلى جوار النافذة :

ـ ليست عسيرة ، بل مستحيلة !

ظهر (قدرى) فى هذه اللحظة ، وهو يحمل عدة هويات روسية ، قائلاً :

ـ إذن فهى مهمة مناسبة لك .

أدار (أدهم) و(منى) عيونهما إليه ، فتابع ، وهو يلتهم قضمة كبيرة من شطيرة ضخمة :

ـ لست أدرى ما المشكلة بالضبط ، ولكنى اعتدت منك أن تقهر المستحيل ، فى كل مهمة تقوم بها .

تطلّع إليه (أدهم) لحظات فى صمت :

ـ هناك أمور تتجاوز حاجز المستحيل يا صديقى .

وضع (قدرى) بطاقات الهوية على المائدة أمام (أدهم) ، وهو يقول :

ـ هراء !

نظرت إليه (منى) فى دهشة ، فى حين ابتسم (أدهم) ابتسامة هادئة ، دون أن يجيب ، فتابع (قدرى) فى بساطة ، وهو يلتهم شطيرته فى نَهَم :

ـ فى كثير من الأحيان ، عندما أبدأ فى تقليد شىء ما ، وخاصة مع تطورّ الوسائل التكنولوجية فى صنع الهويات الحديثة ، تبدو لى العملية مستحيلة ، وخاصة عندما انغمس دون أن أدرى فى التعقيدات التكنولوجية ، ويتشابك عقلى معها ، ولكن عندما أتخلص من كل هذا ، وأفرغ ذهنى من تعقيدات الموقف ، وألقى نظرة أكثر بساطة ، يبدو لى الأمر كله أهون مما كنت أتصورّ ، ويصبح المستحيل ممكنًا ، وبوسيلة أكثر بساطة مما كنت أتصورّ بكثير .

التقى حاجبا (أدهم) ، وهو يتطلّع إليه فى تركيز شديد ..

وانطلق عقله يعيد دراسة الموقف كله ..

وعلى طريقة (قدرى) ...

ببساطة ..

وبعقلية ممتازة ، استطاع إفراغ عقله من كل التعقيدات ، التى تحيط بالمهمة كلها ..

ونظر إليها مرة أخرى ، و ...

وفجأة ، التمعت عيناه ، واعتدل على مقعده بحركة حادة ، جعلت (منى) تهتف :

ـ (أدهم) .

أما هو ، فقد ارتسمت على وجهه ابتسامة كبيرة ، وهو يقول :

ـ (قدرى) .. أنت عبقرى يا صديقى .

تهللت أسارير (قدرى) ، وقال بفم مملوء بالطعام :

ـ حقًا !!

وكان (أدهم) يعنى بالفعل كل حرف مما قاله ..

لقد وجد أسلوب (قدرى) الوسيلة ، لإنهاء هذه المهمة كلها ..

الوسيلة البسيطة ..

للغاية ..

★ ★ ★

لم تشعر (سونيا جراهام) فى حياتها كلها بالقهر والغضب والمرارة والعجز ، مع إحساس شديد بالفشل والسخط ، مثلما شعرت بها فى تلك اللحظة ، وهى تقف داخل القاعة ، التى سعت للعودة إليها ..

بكل تلك المشاعر حدّقت فيه ..

فى زعيم (المافيا) الروسية ..

(أبل كوربوف) ..

كان يتطلّع إليها فى شماتة ظافرة صامتة ، وعلى شفتيه ابتسامة مقيتة ، جعلتها تتمنى أن تنقض عليه ، وتغرس وتدًا خشبيًا فى قلبه ، وخاصة عندما تحدّث قائلاً :

ـ عيبكم جميعًا أنكم تتصوّرون أنفسكم الأذكى .

غمغمت فى مقت :

ـ نحن كذلك بالفعل .

انطلقت من حلقه ضحكة عالية ساخرة ، استفزّت مشاعرها بشدة ، قبل أن يقول :

ـ أوجودك هنا هو الدليل الحى على هذا ؟!

عضت شفتها السفلى فى حنق ، دون أن تنبس ببنت شفة ، فتابع هو ، فى سخرية شامتة ظافرة :

ـ ما نسيتموه جميعًا هو أن أمثالنا يتمتعون بذكاء الثعالب ، وغريزة الذئاب ، والحياة فى الشوارع تعلمنا ما لا يمكنكم أن تكتسبوه ، ولو بعد سنوات من العمل والخبرة .. لقد علمت أنكم جميعًا ستسعون خلفى ، فأعددت خطتى لمقابلتكم ، واستعنت فى ترتيبها بعقلية علمية فذة ، للرجل الذى سيدفع سلاحك للعمل .

انتهبت بشدة عند هذه النقطة ، فقال فى زهو :

- (يورى ساندوفيتش) .. هل سمعت هذا الاسم من قبل ؟!

لم تجب سؤاله ، وإن شفت عيناها عن أنها تعرفه جيدًا ، فتابع بنفس الزهو الوحشى :

- كنت أعلم أن ذلك المصرى سيحاول جمع المعلومات فى البداية ، وسيسعى لمعرفة أين أنت ، وفيم تفكرين ؟ ووسيلته الوحيدة لهذا هى أن يخدعك ، ويدفعك للظهور ، فنشرت رجالى فى كل مكان ، وأنا بالمناسبة أتزعم عددًا هائلاً منهم ، ربما يتجاوز المليون .. نشرتهم وزرعتهم فى كل مكان .. أكثر من مليونىْ عين كانت تبحث عنكما ، على نحو تعجز أجهزة المخابرات نفسها عن بلوغه ، وكان من حسن حظى أن عثرت عليكما معًا ، وأعترف أننى فكرت فى الانقضاض عليكما بنفسى ، ولكن مستشارى (يورى) أشار علىَّ بلعبة أكثر براعة .. لعبة البديل ، التى جعلت المصرى يتصورً أنك انتصرت ، وجعلتك تتصورين أن رجالى قد فقدوا قيادتهم ، مما يدفعك إلى أن تهرعى إلى هنا ، فى محاولة لاسترداد وكرك وسلاحك فى غيابى .

ومال نحوها ، وتضاعفت سخريته ، وهو يقول :

- ما رأيك ؟!.. هل نجحت خطتى ؟!

رمقته بنظرة مقت وسخط ، قبل أن تقول فى صرامة :

- ليس بعد .

تراجع بحركة حادة ، فأضافت فى تحدٍّ :

- إنك لم تظفر بـ (أدهم) بعد .

اشتركت عيناه وشفتاه فى ضحكة ساخرة ، وهو يقول :

- إنها مسألة وقت فحسب .

برز (يورى) من خلفه ، فى هذه اللحظة ، وهو يقول فى خبث لم يرق لها :

- نحن نعرف أين سنجده .

قالت فى عصبية :

- هراء .. لو أنكم تعرفوه لسعيتم إليه .

قال (يورى) فى سرعة :

- ليس الآن .

أطلَّ تساؤل متوتر من عينيها ، فأضاف (كوربوف) ، فى لهجة واثقة ساخرة ، لم تخل من رنة الوحشية :

- يمكنك أن تقولى : إنه الآن يعمل لحسابنا .

استعاد (يورى) ابتسامته الساخرة الخبيثة ، وهو يكمل :

- ودون حتى أن يدرى .

نطقها (يورى) ، فأطلق (كوربوف) ضحكة عالية ظافرة ، فى حين انعقد حاجبا (سونيا) بمنتهى الشدة ..

فهى تحاول أن تفهم ما قالاه ..

تحاول لأوّل مرة أن تفهم ما يدور حولها فى تلك اللعبة ، التى تزداد تعقيدًا فى كل لحظة ..

لعبة السيطرة ..

الوحشية .

★ ★ ★

9ـ نــاروجليــد ..

ربَّت (قدرى) على كرشه الضخم فى تراخٍ شديد ، وهو يقاوم ذلك النعاس الشديد ، الذى يسيطر على مخه ، منذ انصراف (أدهم) و (منى) ..

كان قد التهم ثلاث شطائر كبيرة ، امتلأت بها معدته ؛ مما أورثه ذلك الشعور القوى بالنعاس ، فغمغم وهو يقاوم تثاقل جفنيه فى صعوبة :

ـ عجبًا !.. لماذا أقاوم ؟!.. ما دمت قد أنهيت عملى ، وأشعر بالرغبة فى النعاس ، فلِمَ لا ؟!

نهض فى تثاقل ، واتجه نحو حجرة النوم ، وهو يقول فى سخرية :

ـ لقد تصرَّفت كما يفعل الأطفال ، عندما يكون طويلاً ، لإعلان رغبتهم فى النوم .. إننى أتساءل طيلة عمرى ، لِمَ لا ينامون فحسب دون بكاء ؟!

قالها ، وانطلق يضحك فى مرح ، وجسده الضخم كله يترجرج ، و ...

وفجأة ، اقتحم أولئك الرجال المنزل ..

وبمنتهى العنف ..

خمسة رجال أشداء ، ضخام الأجساد ، حطموا باب المنزل ، وانقضوا على (قدرى) ، الذى تراجع فى ذعر ، هاتفًا :

ـ ما .. ما هذا ؟!

دفعه رجلان فى عنف ، فسقط أرضًا كجوال ضخم ممتلئ ، وحتى قبل أن يصرخ ، كمَّم ثالث فمه ، فى حين كبل الباقون ذراعيه ..

ولقد حاول (قدرى) أن يقاوم بحق ..

حاول ..

وحاول ..

وحاول ..

ولكن شخصًا مثله ، كان من العسير عليه أن يقام خمسة من العمالقة دفعة واحدة ..

خاصة أن أحدهم وضع على أنفه وفمه قطعة من القماش ، كتمت أنفاسه ، وانبعثت منها رائحة نفاذة قوية ..

رائحة ملأت أنفه ، وتصاعدت فى سرعة إلى مخه ، وانتشرت فى كيانه كله .

وبعدها لم يشعر بشىء ..

أى شىء ..

على الإطلاق ..

★ ★ ★

« إنه ليس واحدًا من ضباط المخابرات المصريين .. »

قالها رئيس (راءول) ، عبر الهاتف ، فأجابه هذا الأخير فى عصبية :

ـ ماذا تعنى بأنه ليس أحد ضباط المخابرات المصريين ؟!.. إنهم لن يستعينوا حتمًا برجال مخابرات ، من دول أخرى !

قال رئيسه :

ـ كلا بالطبع .

وصمت لحظة ، ثم أضاف ، فى شىء من التردُّد :

ـ ولكن ما قصده الخبراء هو أنه ليس أحد ضباط المخابرات الحاليين .

سأله (راءول) فى قلق :

ـ ماذا تعنى ؟!

أجابه :

ـ أعنى أن هـذا الأسـلوب يتفـق مع أسـلوب ضـابط مصرى قديم ، خطط معظم عمليات المصريين ، أيام حرب (كيبور) (*) ، وكانت نسبة نجاح ما يخططه تصل إلى ما يقارب المائة فى المائة ، على الرغم من بساطة أساليبه .

سأله (راءول) بمنتهى الاهتمام :

ـ ما اسم ذلك الضابط ؟!

قرأ رئيسه الاسم من ملف أمامه ، وهو يقول :

ـ اسمه (حسن عبد الـ ...) ..

قاطعه (راءول) فى صرامة ، لا تتفق مع فارق الرتب :

ـ عرفته .

ثم ضغط أسنانه فى قوة ، وهو يضيف مفسرًا :

ـ لقد رصد رجالنا وصوله إلى السفارة المصرية فى (واشنطن) ، عندما كانت الأزمة هناك مشتعلة ، ولكننى أيامها تصورت أنه قد انتقل إلى السلك الدبلوماسى ، ولم يخطر ببالى لحظة واحدة أنهم قد استعانوا بخبرته .

(*) حرب كيبور : هو الاسم الذى يطلقه الإسرائيليون على حرب السادس من أكتوبر ؛ لأنه كان يتوافق مع عيد (كيبور) لديهم .

قال رئيسه مؤمنًا :

ـ معلوماتنا تقول : إنه كان الصديق لوالد (أدهم) هذا ، وكان موجودًا ، لحظة أن قمنا بتصفيته فى (لندن) ، بقرار من ...

قاطعه (راءول) ، متجاوزًا حدود اللياقة والوظيفة :

ـ كلنا نحفظ هذا عن ظهر قلب .

ثم صمت لحظات ، قبل أن يتابع :

ـ ولكن لو أن هذا هو العقل ، الذى يرسم لـ (أدهم) خططه ، حتى لا يمكننا التنبؤ بها ، فأفضل وسيلة نربك بها ذلك الشيطان المصرى ، هى إزاحة مخططه عن الطريق .

قال رئيسه فى قلق :

ـ (راءول) .. هل تخطط لـ ...

مرة أخرى ، قاطعه (راءول) ، قائلاً فى حزم :

ـ بالتأكيد .

أنهى المحادثة بعدها بدقيقة واحدة ، ثم أجرى اتصالاً مباشرًا بمكتبهم فى (واشنطن) ، وقال فى صرامة :

ـ اسمعنى جيدًا يا رجل .. هناك هدف يثير لنا الكثير من المتاعب من عندكم .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى شراسة :

ـ نعم ، نريد إسكاته .. نهائيًا .

وهكذا بدا وكأن التاريخ يعيد نفسه ..

تاريخ الشر ..

* * *

انطلق صهيل أحد الجياد ، فى تلك المزرعة الكبيرة ، عند أطراف (لينينجراد) على نحو أثار انتباه أحد رجال الحراسة ، الذين يحومون فى المكان طوال الوقت ، فاتجه نحو منطقة الاسطبلات ، وهو يمسك سلاحه فى حذر ، وراح يتفقّد المكان فى دقة ، قبل أن يعتدل ، ويتطلّع إلى الجياد ، قائلاً :

ـ حسن .. لا يوجد شىء .. ما الذى استثار أعصابكم إذن ؟!

صهل أحد الجياد مرة أخرى ، فالتفت إليه الحارس بحركة حادة ، وعاد يرفع سلاحه ، وهو يتجه نحوه ، و ...

وفجأة انقض عليه (أدهم) من أعلى ..

هبط فوقه فى عنف ، وأسقطه أرضًا ، وهوى على فكه بلكمة عنيفة ، دار لها رأس الرجل فى عنف ، ولكنه حاول أن يتماسك ، أو يرفع سلاحه ، ولكن اللكمة الثانية أسقطته فاقد الوعى تمامًا ..

وفى سرعة ، ودون إضاعة لحظة واحدة ، استبدل (أدهم) ثيابه بثياب الحارس ، والتقط طاقية رأسه الكبيرة ، وأخفى بها نصف وجهه ، وحمل سلاحه ، ثم غادر الاسطبلات فى هدوء ، وراح يسير فى المكان ، ويتبادل التلويح لرجال الحراسة الآخرين ، فى جرأة يحسد عليها ، بلغ منطقة المعامل ، فاقترب من حارسيها ، وهو يخفض وجهه ، ولكن أحدهما رفع سلاحه ، قائلاً فى خشونة قاسية :

ـ رويدك يا هذا .. ألم تبلغك التعليمات الجديدة ، التى تحظر الاقتراب من هنا ، دون تصريح خاص ؟!

اقترب (أدهم) من الحارسين أكثر ، وهو يقول :

ـ حقًّا ؟!.. ومتى صدرت هذه الأوامر ؟!.. قبل أم بعد مولدكما ؟!

حملت عبارته قدرًا من السخرية ، جعل الرجلين يرفعان سلاحيهما فى وجهه ، وأحدهما يهتف :

ـ من أنت يا رجل ؟!

وأجابهما (أدهم) ..

أجابت قبضته الأولى بلكمتين متعاقبتين سريعتين ، فى أنفه وفمه ، وأجابت قدمه اليمنى الثانى بركلة فى معدته ، قبل أن تشترك معها قدمه اليسرى بركلة أكثر عنفًا فى أنفه ..

وقبل حتى أن يسقط الرجلان أرضًا ، كان (أدهم) يثب متجاوزًا إياهما ؛ ليدلف إلى المعمل فى حركة سريعة ، جعلت (توركنيف) ينتفض ، وهو يثب من مكانه ، هاتفًا :

ـ من أنت ؟!

أجابه (أدهم) ، وهو يتجه نحوه :

ـ أنا الذى أتى ، ليخرجك من هذا السجن العلمى الإلكترونى ، الذى يحتجزونك فيه .

تراجع (توركنيف) فى ذعر ، هاتفًا ، وهو يلوّح بذراعيه :

ـ لا .. لاتحاول .. لو أخرجتنى من هنا ، ستكون نهايتى .

التقط (أدهم) قارورة زجاجية ، وهو يقول :

ـ أعلم كل شىء عن ذلك السوار الإلكترونى المتفجّر ، ونظام الأمن المرتبط به .

وصب أحد سوائل المعمل فى القارورة ، مضيفًا :

ـ ولكنها ليست بالمشكلة العسيرة .

هتف (توركنيف) مستنكرًا :

ـ هل جننت ؟!.. ألا تعلم كم أساوى لهم ؟!.. إنهم لن يسمحوا لأحد بالحصول علىّ قط .

قال (أدهم) فى هدوء عجيب ، وهو ينتقى مادة أخرى ، ويضيفها إلى الأولى فى حذر :

ـ بالضبط .. وهذا ما سيساعدنا على إخراجك من هنا .

هتف (توركنيف) :

ـ أى قول أحمق هذا ؟!

أدار (أدهم) عينيه فى المكان ، ثم اختار مادة ثالثة ، أسالها فى رفق على جدار القارورة ، لتمتزج بالمادتين الأخرين فى بطء ، وهو يقول :

ـ حاول أن تحسب الأمر بعقلية عالم يا رجل ، وليس بفكر شخص مذعور .. أنت تساوى الكثير بالنسبة لهم ، ولهذا لن يسمحوا لآخر فاختطافك .

ثم ألقى القارورة بعيدًا بالأرض ، وانفجرت بدوى محدود ، اشتعلت إثره النيران فى ركن المعمل ، فصرخ (توركنيف) فى رعب :

ـ ماذا فعلت أيها المجنون ؟!

أدهشه كم ظلّ (أدهم) هادئًا ، على الرغم من النيران ، التى تسرى فى المكان فى سرعة ، وهو يقول :

ـ النظم الإلكترونية هنا ستنقل إليه حدوث حريق سريع الانتشار فى المعمل ؛ ولأنك تساوى لديهم الكثير ، ولأنه من الطبيعى أن ..

أتجه نحو (توركنيف) فى حركة سريعة ، وأمسك معصم الرجل ، ثم انتزع السوار عنه بحركة عنيفة ، جعلت هذا الأخير يصرخ ، فى مزيج من الألم والرعب :

ـ لا ..

ولكن (أدهم) تابع فى حزم هادئ ، وهو يلوّح بالسوار فى يده :

ـ أوقفوا إشارى الأمن ، من السوار الإلكترونى .

وأمام عينى (توركنيف) الذاهلتين ، ألقى (أدهم) السوار بعيدًا ، وهو يميل نحوه ، قائلاً بابتسامة ، بدت غير متناسبة مع الموقف كله :

ـ سيحمون استثماراتهم .. أليس كذلك ؟!

ظلّ (توركنيف) يحدّق فيه لحظة فى ذهول ، قبل أن يهتف :

ـ النارستجذبهم إلى هنا خلال لحظات قليلة .

جذبه (أدهم) إليه ، وهو يقول فى صرامة :

ـ لذا ينبغى أن نبتعد بأقصى سرعة .

كان (توركنيف) يعدو معه ، بكل خوفه وهلعه وقوته ، ولكنه لم يستطع أبدًا مجاراته ..

لقد كان (أدهم) يعدو فى سرعة وخفة خرافيتين ، ورجال الحراسة يهرعون نحوهما من كل صوب ، فتوقّف (توركنيف) ، وهو يلهث ، هاتفًا :

ـ لا ، لن يمكننى الاستمرار .. أمض أنت فى طريقك .

توقّف (أدهم) ، على الرغم من أن رصاصات رجال الحراسة قد بدأت تنهمر بالفعل ، واندفع عائدًا إليه ، فهتف (توركنيف) مكررًا :

ـ لا .. لا ، امض وحدك .

ولكن (أدهم) جذبه إليه ، ثم رفعه عن الأرض فى قوة ، وحمله على كتفيه ، وانطلق يعدو به ، ورجال الحراسة يطلقون رصاصاتهم فى غزارة مخيفة ..

وبمنتهى القوة أغلق (توركنيف) عينيه ، وهو يردد مرتجفًا :

ـ سيقتلوننا .. سيقلوننا حتمًا .

كانت الرصاصات تتناثر حولهما على نحو مخيف ، حتى إن (أدهم) نفسه قد تساءل كيف لم يصبه إحداها ، وهو يعدو بحمله هذا ، حتى انحرف نحو منطقة الاسطبلات ، فهتف (توركنيف) فى فزع :

ـ ليس هذا هو الطريق ..

لم يجبه (أدهم) ، وهو يثب به نحو مدخل الاسطبلات ، وما إن عبراه ، حتى أنزل حمله ، واستدار يغلق الباب الخشبى الكبير فى قوة ، فتلفت (توركنيف) حوله ، وهو يقول فى ارتياع :

ـ لقد سجنتنا هنا .. سيحاصروننا ، ويسحقوننا سحقًا ، و ...

قاطعه (أدهم) فى صرامة شديدة :

ـ اصمت .

أطبق (توركنيف) شفتيه فى قوة ، فاستطرد (أدهم) ، وقد لان صوته :

ـ دعهم يحاصروننا كما يشاءون ، ولكن المكان هنا يمنحنا عشرات الفرص .

وتلفَّت حوله بدوره ، مضيفًا :

ـ وعشرات الأسلحة .

سأله (توركنيف) فى دهشة :

ـ أية أسلحة ؟!

مال (أدهم) نحوه ، وهو يسأله بابتسامة كبيرة ، بدت شديدة التناقض مع الموقف :

ـ قل لى يا رجل ، هل تعلم بِمَ اشتهر فرسان العرب قديمًا ؟!

ولم يجب (توركنيف) ، ولكن وجهه وعيناه تحملان الكثير من الدهشة ..

الكثير جدًا ..

★ ★ ★

لم يكد دوى الرصاصات يتناهى إلى مسامع (منى) ، وهى تجلس فى سيارتها ، خارج تلك المزرعة فى (لينينجراد) ، حتى سرى توتر عنيف فى جسدها ..

ها هوذا القتال قد بدأ ...

(أدهم) لم ينجح فى إتمام المهمة بالسرعة المطلوبة ..

أو أنه قد فعل ، ولكن خصومه كانوا أكثر سرعة ..

وهم حتمًا أكثر عددًا ..

ولكنه لها ..

(أدهم) دومًا لها ..

مهما كان عدد خصومه ، ومهما كانت قوتهم ، فهو ينتصر ..

أو هكذا ما تتمناه ..

وليس ما يشعر به قلبها ..

ففى أعماقها ، ما زال ذلك الشعور يتضاعف ويتزايد ..

إنها آخر مهمة لهما معًا ..

آخر مرة تراه ..

أو تشعر بوجوده إلى جوارها ..

شعور رهيب يملأ قلبها ، بأنهما سيفترقان ..

شىء ما سيفرّق بينهما ..

شىء مخيف ..

قاومت بشدة ذلك الشعور التشاؤمى فى أعماقها ، وأدارت محرك سيارتها ، حتى تصبح مستعدة للانطلاق ، فى أية لحظة ، كما تنص الخطة ، التى وضعها (أدهم) عندما انتقلا إلى (لينينجراد) ..

كان واثقًا من إنه سينجح فى إخراج (توركنيف) من تلك المزرعة ، ولم يكن يشغله إلا كيفية الابتعاد عنها بأقصى سرعة ..

ومع دوى الرصاصات ، الذى يكاد يصم أذنيها عادت تتساءل ، وذلك الشعور ينمو داخلها ثانية : ترى هل سينجو ؟!..

هل ؟!

مصباحا سيارة قويان أضاءا من خلفها ، وانعكس ضوؤهما على المرآة الداخلية لسيارتها ، ليغشى بصرها لحظة ، فأشاحت بوجهها ، ليرتطم بصرها بفوهة مسدس قوية ، مصوبة إلى رأسها مباشرة ..

وبالنسبة لفتاة عادية ، فى مثل عمرها وظروفها ، كانت المفاجأة مناسبة لشل تفكيرها وجسدها كله تمامًا ..

ولكن (منى) لم تكن فتاة عادية ..

إنها ضابط مخابرات ..

ضابط مخابرات تدرّب على يد مدرّب لا يشق له غبار ..

على يد الرجل ..

رجل المستحيل ..

لذا فقد تحرّكت ، فور أن وقع بصرها على فوهة المسدس ، فانحنت بحركة سريعة ؛ لتبعد رأسها عن الفوهة ، وهى تدفع الباب بكل قوتها ، ليرتطم بمهاجمها ، حتى من قبل أن تراه ..

وانطلقت رصاصة الرجل بالفعل ..

انطلقت ودوت فى أذنها ورأسها ، ولكنها لم تبال ، وهى تثب خارج السيارة ، وتركل المسدس من يد الرجل ، الذى بدا لها لأوّل مرة عملاقًا ضخمًا ، لم يكد يفقد مسدسه ، حتى انقض عليها فى عنف وحشى ، ولكن (منى) تفادت انقضاضته ، ووثبت تركله فى أنفه مباشرة ، ومع تراجعه ، دارت حول نفسها فى رشاقة ، وركلته مرة أخرى ، أسقطته أرضًا فى عنف ..

وعندما استقرت قدماها على الأرض ، انقض عليها ثلاثة عمالقة آخرين من الخلف فى قوة ..

صحيح إنها تلميذة (أدهم صبرى) ورفيقته ..

وصحيح إنها تجيد القتال ، كما يجيده أى رجل مخابرات محترف ..

ولكنها فى النهاية فتاة ..

فتاة لا تمتلك القوة الكافية ، للالتحام مع ثلاثة من العمالقة فى آن واحد ..

لذا ، فقد قاتلت بكل قوتها ..

قاتلت كما لم تقاتل من قبل ..

ولكن فى النهاية كان الانتصار للكثرة ...

ومع ضربة عنيفة ، على مؤخرة رأسها ، سقطت (منى) ..

سقطت فاقدة الوعى ، وسط العمالقة ..

الأعداء ..

* * *

اعتدلت دونا (كارولينا) بحركة حادة على طرف فراشها ، الذى لم تغادره منذ ساعات طوال ، وهى تمسك هاتفها فى قوة ، هاتفة بكل الانزعاج :

ـ ماذا ؟!

أجابها (أبل كوربوف) ، فى لهجة هى مزيج من السخرية والشماتة والشراسة :

ـ ماذا أصابك يا عزيزتى دونا ؟!.. هل ضعفت حاسة السمع لديك ، أم أن قدرتك على الاستيعاب قد انخفضت ، مع تقدُّمك فى العمر ..

لم تنبس دونا ببنت شفة ، وإن كادت أصابعها تعتصر هاتفها المحمول ، من فرط غضبها ، فتابع هو فى شماتة :

ـ فليكن .. سأعيد على مسامعك ما سبق أن قلته .. لقد جرؤ رجالك على محاولة اقتحام عالمى ، فما كان منى إلا أن سحقتهم سحقًا ، ورجالى يقومون الآن بتصفية من تبقى منهم ، فى كل مكان من (روسيا) العزيزة .

بذلت جهدًا خرافيًّا للسيطرة على أعصابها ، وهى تسأله فى حدة :

ـ ماذا تريد يا (كولوف) ؟!

أجابها بنفس السخرية الشامتة :

ـ إنه (كوربوف) الآن يا عزيزتى ، ولكن هذا لايهم .. لقد أردت فقط أن أخبرك أن حليفتك الجميلة (سونيا جراهام) فى قبضتى الآن ، ويمكننى أن أسحقها بقدمى فى لحظة واحدة .

قالت فى حنق :

ـ افعل إذن .

أطلق ضحكة ساخرة ، وهو يقول :

ـ سأفعل يا جميلتى .. حتمًا سأفعل ، ولكن بعد أن تشاهد انتصارى الساحق بعينيها .

ثم اكتسبت لهجته شراسة وحشية ، وهو يضيف :

ـ وسيكون هذا مصيرك أيضًا ، لو أقدمت مرة أخرى على نقض تعاهدنا ، بألا يدس أحدنا أنفه فى شئون الآخر ، وهذا هو ...

أنهت المحادثة ، قبل أن يتم عبارته ، وجلست محتقنة الوجه بشدة ، على طرف فراشها ، وقلبها ينبض فى عنف وتوتر بالغين ..

إنها اللعنة التى تؤمن بها ..

لعنة (أدهم صبرى) ..

لقد وقعت فى الخطأ ، الذى شاهدت الجميع يقعون فيه من قبل ..

وها هى ذى النتيجة ..

أصيبت منظمتها بلطمة عنيفة ، لم تتلق مثلها ، فى تاريخها كله ..

لطمة عليها أن تتعامل معها بمنتهى الحكمة ، وإلا نالها ما سعت لتجنبه طويلاً جدًا ..

(المافيا) لم تعد التنظيم الإجرامى الأوحد والأكبر والأقوى عالميًا ..

اليابانيون صنعوا منظمتهم ..

والروس ..

والصينيون ..

والكوبيون ..

والصراع أصبح عنيفًا ..

شرسًا ..

وحشيًا ..

والسبيل الوحيد لتفادى الدخول فى حروب عنيفة ، هى تقسيم العالم إلى أقسام ، تسيطر كل منظمة على قسم منها ..

ولا تتدخل واحدة فى شئون الأخرى ..

أبدًا ..

ولكن (سونيا) خدعتها ..

وورطتها ..

وأدخلتها فى اللعبة ..

اللعبة التى تفادتها دومًا ..

انطلقت عشرات الأفكار تعربد فى عقلها ، الذى اشتعل بآلاف الأعاصير والعواصف ، حتى انعقد حاجباها فى شدة ، وسحبت هاتفها

المحمول مرة أخرى ، وطلبت رقمًا دوليًا ، وما إن سمعت صوت محدثها ، حتى قالت فى حدة :

- اسمعنى جيدًا يا جنرال ؛ لأننى لن أقولها مرة أخرى .

حمل صوتها كل توترها وانفعالاتها ، وهى تضيف بمنتهى الحزم والعصبية :

- إننى أنسحب من التحالف .. وهذا قرار نهائى ، غير قابل للمناقشة .

قالتها ، وأنهت المحادثة فى عنف ، ثم ألقت هاتفها المحمول بعيدًا ، وتركت جسدها يسقط على الفراش فى حدة ..

نعم ..

إنه قرار حكيم ..

القرار الوحيد الذى يحمى منظمتها ، وينقذها من حرب عصابات ، قد لا تربحها أبدًا ستنسى فكرة السيطرة على العالم ..

وتنسى (سونيا) ..

وحتى (أدهم) ..

(أدهم صبرى) نفسه ستنساه ..

نهائيًا ..

* * *

حاصر رجال حراسة مزرعة (لينجراد) اسطبلات الخيول بأسلحتهم ، وهتف بهم قائدهم فى صرامة :

- أطلقوا النار فور رؤيته .. سنمهله خمس دقائق فحسب ، فإما أن يستسلم ، أو ...

قبل أن يتم عبارته ، ارتفع صهيل عشرات الجياد داخل الاسطبلات ..

وتحفز الجميع بأسلحتهم ، خاصة وأن الباب الخشبى الكبير قد انزاح قليلاً ، فتراقصت سبّاباتهم على أزندة أسلحتهم ، و ...

وفجأة ، اندفعت الخيول عبر الباب الخشبى ..

كل خيول الاسطبلات ، اندفعت تعدو فى وجه رجال الحراسة ، مستفزة بتلك الصرخات العالية ، التى يطلقها (أدهم) خلفها ..

ومع حالة الفوضى الشديدة ، التى أصابت رجال الحراسة ، مع اندفاع قطيع الخيول ، انطلق (أدهم) على متن جواد قوى ، وهو يحمل (توركنيف) خلفه ..

وبكل ذعر الدنيا ، أطلق (توركنيف) صرخة ممتدة طويلة ، و(أدهم) ينطلق بالجواد ، كفارس عربى أصيل نبيل ، ورجال الحراسة مرتبكون ، عاجزون حتى عن إطلاق النار عليه ..

حتى إنهم عجزوا عن رؤيته ، وسط عشرات الجياد ..

صحيح أنهم أطلقوا عشرات الأعيرة النارية العشوائية ، ولكن كل ما فعلته هو أنها أثارت الجياد ، ودفعتها للعدو أسرع وأسرع ..

وبكل رعبه ، لاحظ (توركنيف) أنهما ينطلقان نحو سور المزرعة المكهرب ، فصاح :

ـ والآن ماذا ؟!

صاح به (أدهم) بكل صرامته :

ـ تشبث بقوة .

كان (توركنيف) يتشبَّث به بأقصى قوته بالفعل ، وهو يصرخ :

ـ لست أظنك تفكِّر حتى فى ...

اتجه (أدهم) نحو كومة من الأخشاب ، لايذكر (توركنيف) أبدًا أنها كانت قريبة من السور على هذا النحو ، وهو يقاطعه صائحًا :

ـ تشبَّث .

أغمض (توركنيف) عينيه فى قوة ، وحاول أن يتشبَّث به أكثر ، وشعر بالجواد يرتفع فوق كومة الأخشاب ، ويطلق صهيلاً قويًا ..

ثم يقفز ..

لقد جذب (أدهم) عنانه ، وهو يلكزه فى بطنه فى قوة ..

وقفز الجواد ..

قفز كما لم يقفز من قبل ..

فارسه دفعه إلى أن يستنفر كل قواه وطاقاته ..

وعلى الرغم منهم ، توقَّف رجال الحراسة مبهورين ذاهلين ..

لقد بدا لهم (أدهم) أشبه ببطل أسطورى ، وهو يثب بالجواد ، الذى يحمل رجلين ، عبر السور المكهرب ، قبل أن يختفى خلفه ..

ولقد كان كل شىء معدًا بدقة مسبقة ..

لقد هبط الجواد على سقف السيارة ، التى أوقفتها (منى) فى المكان المتفق عليه بالضبط ، ثم منه إلى الأرض ، قبل أن يجذب (أدهم) عنانه فى قوة ؛ ليجبره على التوقف ..

كان (توركنيف) مبهورًا مأخوذًا ، عندما وثب (أدهم) عن متن الجواد ، وجذبه إليه ، هاتفًا :

ـ هيا .

اندفع به (أدهم) نحو السيارة ، وفتح بابها ، و ...

وفجأة ، انغرس سلك رفيع فى ظهره ..

وثان فى عنقه ..

وثالث فى فخذه ..

وحتى قبل أن يتحرك ، سرت فى الأسلاك الثلاثة ، عبر مسدسات كهربية خاصة ، موجة عنيفة ..

صدمة كهربية ، يستحيل أن يحتملها بشرى ..

حتى ولو كان رجل المستحيل نفسه ..

وانتفض جسد (أدهم) فى عنف ..

بمنتهى منتهى العنف ..

وفى لحظة واحدة ، أظلمت الدنيا أمام عينيه ..

وسقط ..

سقط فاقد الوعى ، فى نفس اللحظة التى أطلق فيها (توركنيف) صرخة رعب ، وهو يتلفت حوله ..

ومن خلف أكمة قريبة ، برز (جوركى) ، المساعد الأول لزعيم المافيا الروسية ، وهو يقول :

ـ كنا نعلم أن هذا الثعلب المصرى سيجد وسيلة لإخراجك .

حدّق (توركنيف) فيه فى رعب ، ورأى ثلاثة رجال يتجهون نحو (أدهم) ، ورابع يتجه نحوه هو ، فهتف متراجعًا :

ـ ماذا ستفعلون بى ؟!.. ماذا ستفعلون ؟!

رفع أحدهم بخاخة صغيرة أمامه وجهه ، ودفع منها رذاذًا باردًا ، اخترق أنفه وعينيه ، و ...

مع سقوط (توركنيف) ، رفع (جوركى) هاتفه المحمول إلى أذنه ، وهو يقول فى ارتياح ظافر :

ـ انتصرنا أيها الزعيم .. انتهت المعركة .

وألقى نظرة أخرى على (أدهم) و(توركنيف) ، قبل أن يضيف فى زهو :

ـ لصالحنا .

وابتسم فى ثقة ..

وظفر .

* * *

10 ـ أسرى ..

« ذلك الوغد !! »

هتف الجنرال (ماليكوف) العبارة فى سخط ، وهو ينهى المحادثة فى عنف ، ويلتفت إلى الجالسين أمامه ، قائلاً فى غضب :

ـ ذلك الوغد يهددنى صراحة !!.. بلغت به الجرأة أن يفعل .

سأله (سميث) فى توتر :

ـ (أدهم صبرى) ؟!

هتف (ماليكوف) ، وهو يلوّح بيده :

ـ بل (كوربوف) .. (أبل كوربوف) .

قال سير (ويليام) فى حذر :

ـ زعيم (المافيا) الروسية ؟!

أجابه (ماليكوف) فى غضب :

ـ هو بنفسه .. طلب منى حسم الأمر ، ودفع المليارات الأربعة التى طلبها ، وإلا فإنه سيطلق سلاحه ، ليرينا تجربة عملية ، تعيدنا إلى صوابنا .

سأله (جون) فى قلق :

ـ وماذا يمكن أن يفعل سلاحه هذا ؟!

مطّ (ماليكوف) شفتيه دون أن يجيب ، فقال (سميث) فى بطء :

ـ يستطيع أن يزيل المسافة ، من (موسكو) إلى (لينينجراد) ، فى لحظة واحدة .

اتسعت عينا (فيدور) فى ذعر مندهش ، و(جون) يهتف :

ـ إلى هذا الحد ؟!

وزمجر (ماليكوف) ، قائلاً :

ـ من الواضح أنك تعرف الكثير عن ذلك السلاح يا كولونيل .

تحاشى (سميث) النظر إليه ، وهو يقول :

ـ المفترض أن علماءنا هم الذين وضعوا فكرته الأساسية .

غمغم سير (ويليام) ، وهو يرمقه بنظرة ساخطة :

ـ حقًا ؟!..

تابع (سميث) ، وهو يواصل تحاشى النظر إليهم :

ـ الفكرة قدّمها إلينا عالم روسى ، بعد سقوط الاتحاد السوفيتى ، ودرسها طاقم من علمائنا ، فى سرية تامة ، وانتهوا إلى أنه ، لو تم تنفيذه ، فسيصبح أقوى سلاح عرفته الأرض حتى الآن .

قال (جون) فى فضول شديد :

- وأين تكمن قوته بالضبط ؟!

تجاهل (سميث) السؤال ، وكأنه لم يسمعه ، وهو يواصل :

- ولقد بدأنا مرحلة التنفيذ بالفعل ، ولكن يدًا خفية اخترقت نظام الأمن لدينا ، وتمت سرقة جميع التصميمات ، منذ عامين تقريبًا ، واغتيل كل طاقم العلماء ، الذى كان يعمل على تنفيذ المشروع ، فيما عدا ذلك العالم الروسى (إيفان توركنيف) ، الذى اختفى تمامًا ، ولم نعثر له على أثر ، أما النماذج الموجودة على أجهزة الكمبيوتر ، فقد تم محوها رقميًا ، عبر شبكة المعلومات كلها ، بحيث فقدنا كل ما تعرفه عن ذلك السلاح تمامًا .

قال (ماليكوف) فى حدة :

- كنتم تريدون صنعه ، للسيطرة على العالم .. أليس كذلك ؟!

عاد (سميث) ببصره إليه ، وهو يقول :

- نحن نسيطر على العالم بالفعل .

انعقد حاجبا (ماليكوف) فى حنق ، على حين قال (ويليام) :

- إذن فقد أصبح ذلك السلاح الرهيب فى قبضة زعيم (المافيا) الروسية الآن !!

عاد (سميث) يشيح بوجهه ، قائلاً :

- للأسف .

ران عليهم الصمت بعدها ، لمدة تزيد عن نصف دقيقة ، قبل أن يعتدل (ماليكوف) ، ويقول فى صرامة :

- علينا حسم الأمر فى أسرع وقت أيها السادة .

قال (ويليام) فى سرعة :

- قواتنا مستعدة .

واندفع (سميث) يقول :

- وقواتنا أيضًا .

أدار (ماليكوف) عينيه فى وجوههم ، ثم قال فى صرامة :

- للأسف .. لدى أوامر من الرئيس بالتعاون معكما ، كرمز للتحالف فحسب ؛ لذا فستخرج قواتكم ، مع قواتنا ، فى حملة مشتركة ، للعثور على وكر (كوربوف) وتدميره .

غمغم (سميث) فى حذر :

- أعتقد أن (أدهم صبرى) سيسبقنا إليه .

قال (ويليام) فى حزم :

ـ هذا لا يهم .. إما أن نظفر به نحن ، أو يظفر به هو ، وحتى لو فعلها ، سنظفر نحن بالفائز منهما .

قال (سميث) ، وهو يعتدل :

ـ اتفقنا .

لم يرق هذا الأسلوب للجنرال (ماليكوف) ، فالتفت إلى (فيدور) ، وقال :

ـ (فيدور) .. ستقود أنت قوات التحالف فى هذه المهمة .

أراد (ويليام) أن يقول شيئًا ، واعتدل (سميث) ، على نحو يوحى بالمثل ، ولكن (ماليكوف) زمجر ، وهو يشير إليهما ، قائلاً :

ـ إنها أرضنا .

تمتم (سميث) فى عدم رضا :

ـ لا بأس .

مطَّ (ماليكوف) شفتيه ، وقال ، مكملاً حديثه مع (فيدور) بلهجة آمرة :

ـ هذه المهمة من أجل إنقاذ العالم ، فقم بها على خير وجه .

رفع (فيدور) يده بالتحية العسكرية فى قوة ، قائلاً :

ـ سأفعل يا جنرال .

ثم استدار ، وغادر الحجرة ليبدأ مهمته ..

المهمة التى يفترض أن ينقذ فيها العالم ..

ويقضى على الرجل ، الذى يسعى أيضًا لإنقاذه ..

الرجل المصرى ..

رجل المستحيل ..

* * *

لسبب ما ، لم يدر كنهه بالضبط ، شعر (هشام) بتوتر شديد ، وهو يركب سيارة السفارة المصرية ، إلى جوار جده ، فراح يتلفت حوله ، وهو يقول فى قلق :

ـ جدى .. هل ترى أنه من الحكمة أن تغادر (واشنطن) ، فى مثل هذه الظروف ؟!

قال السيِّد (حسن) فى حزم :

ـ بالتأكيد ، فمن الأسهل لن أدير المعركة وسط ساحتها الرئيسية ، ووجودى هنا يجعلنى بعيدًا عن موقع الأحداث ، أما انتقالى إلى (موسكو) ، فسيجعل القرارات أكثر واقعية وسرعة .

تساءل (هشام) :

ـ ولكن ألن يثير انتقالك خلف العميد (أدهم) الشكوك ؟!

ابتسم (حسن) ، وربَّت على ركبة حفيده ، قائلاً :

ـ اطمئن .. إننا ندير اللعبة على نحو أفضل مما تتصورُ .. لقد طلب الرئيس إجراء مباحثات مع وزير الخارجية الروسى ، بشأن ميثاق تجارى ودبلوماسى جديد ، والمفترض أننى مسافر إلى (موسكو) فى مهمةٍ رسمية ، لهذا الهدف بالذات ، ومعى كل الأوراق الرسمية ، التى تؤكد هذا .

غمغم (هشام) :

ـ نعم ، هذا أفضل .

نطقها ، دون أن يتلاشى من أعماقه ذلك الإحساس العميق بالقلق ، والذى تضاعف عندما توقفت السيارة أمام مبنى المطار ، فالتفت إلى جده فى توتر شديد ، وضغط يده فى قوة ، نقلت إليه الإحساس بالقلق ، فابتسم جده ، وقال :

ـ اطمئن يا (هشام) .. قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا .

أومأ (هشام) برأسه إيجابًا ، وحاول أن يبتسم ، إلا أن تلك الغصة فى حلقه منعته حتى من الكلام ، فاكتفى بالهبوط مع جده من السيارة ، وحمل عنه حقيبته الوحيدة ، وسار إلى جواره فى صمت ، و ...

وفجأة انطلقت تلك الرصاصة ..

رصاصة صامتة ، لم يسمعها هو ..

ولم يسمعها جده ..

أو أى شخص حولهما ..

ولكن الجميع رأوا تأثيرها العنيف ..

رأوه فى تلك الانتفاضة ، التى أصابت السيِّد (حسن) فجأة ، وفى بقعة الدم الكبيرة ، التى تكوَّنت فوق سترته ، عند موضع القلب تمامًا ، وفى اتساع عينيه ، ونظرة الدهشة فيهما ، قبل أن يسقط أرضًا ، أمام عينى (هشام) ، الذى صاح فى ارتياع :

ـ جدى .

استدار وهو ينحنى نحو جده ، وشاهد بريق منظار بندقيته ، فوق السطح المقابل ، قبل أن يختفى حاملها ، الذى انطلق مسرعًا ، وسمع أحد المحيطين له يهتف فى ذعر :

ـ لقد مات .

الكلمة فجرَت فى أعماقه شعورًا هائلاً بالغضب ، جعله ينطلق كالبرق نحو تلك البناية ، التى تبعد عن المطار كثيرًا ..

كان يعدو وكأن ألف شيطان قد سكن ساقيه ، وحوَّلهما إلى آلة كبيرة هائلة للعدو ..

كان يجرى ، ويجرى ، ويجرى ، وعيناه ترصدان ذلك القاتل الإسرائيلى المحترف ، الذى بلغ مدخل البناية ، بعد أن ترك بندقيته ذات المنظار أعلاها ، واندفع نحو سيارة ، تنتظره عند الناصية ، انطلقت به فور أن وثب إليها ، و(هشام) يصرخ ، دون أن يتوقَّف عن العَدْو :

- أوقفوه .

لم يسمعه أحد ولم يلتفت أحد ، فى حين راحت السيارة المسرعة تبتعد ..

وتبتعد ..

وتبتعد ..

وعلى الرغم من هذا ، فقد واصل عدوه خلفها لعدة أمتار ، قبل أن تختفى عند ناصية بعيدة ..

وهنا فقط ، توقَّف (هشام) ..

كان الغضب واليأس والحزن يملأ نفسه ، ويسيطر على كيانه كله ..

ولكنه لم يبك ..

لم يذرف دمعة واحدة ..

كان وكأنه يختزن كل هذا فى أعماقه ..

يختزن الغضب ..

واليأس ..

والحزن ..

والدموع ..

يختزنها كلها من أجل هدف واحد ، سيطر على نفسه ، وملأ كيانه كله ..

الانتقــام ..

هدف يعنى أن التاريخ يعيد نفسه ..

أحيانًا ..

* * *

فجأة ، كما يحدث دائمًا ، استعاد (أدهم) وعيه ..

وفى لحظة واحدة ، كما يحدث دومًا أيضًا ، استعاد ذهنه صفاءه ، واستوعب كل ما حوله ..

ومن حوله ..

كان مقيدًا بتلك القيود الفولاذية ، وإلى جواره (منى) ، داخل ذلك الكوخ الخشبى من الخارج ، بجدرانه الداخلية المصنوعة من الصلب ..

وكان أمامه وحوله خمسة رجال ..

(كوربوف) ..

وثلاثة من عمالقته ..

و(قدرى) ..

كان العمالقة الثلاثة يحيطون بـ (قدرى) ، الذى بدا شديد الارتياع ، وهو يحدّق فى (أدهم) و(منى) ، ويقول بصوت مرتجف ، أقرب إلى البكاء ، فور أن فتح (أدهم) عينيه :

ـ يا إلهى !.. حمدًا للّه .. حمدًا لله على سلامتك يا صديقى .

التفت (أدهم) إلى (منى) ، التى غمغمت فى حزن :

ـ لقد قاومت .. ولكن ...

قاطعها بابتسامة حنون ، على الرغم من ذلك الموقف الرهيب ، الذى يعيشونه معًا :

ـ لا عليك .. إنه قدرنا .

قاطعهما (كوربوف) بتصفيق بارد ، جعلهما يلتفتان إليه ..

(منى) فى توتر ..

و(أدهم) فى تحد ..

أما (قدرى) ، فقد غمغم فى مرارة شديدة :

ـ لقد أوقع بنا جميعًا ، و ...

التفت إليه (كوربوف) فى شراسة ، هاتفًا :

ـ اصمت .

أطبق (قدرى) شفتيه فى توتر ، خاصة وأن العمالقة الثلاثة اقتربوا منه أكثر على نحو جعله ينكمش على نفسه ، فقال (أدهم) فى صرامة :

ـ اصمت يا صديقى ، فهذا الوغد يجيد فرض قوته على الضعفاء .

نطقها بالروسية ، التى يجيدها (قدرى) ، بحكم دراسته القديمة هناك(*) ، فانعقد حاجبا (كوربوف) فى غضب ، وهو يقول فى حدة وشراسة :

ـ والأقوياء أيضًا .

ولوّح فى وجه (أدهم) بسبّابته ، وهو يستطرد :

ـ وأنتم الدليل على هذا .

قال (أدهم) فى سخرية :

ـ أمن المفترض أن أرتجف ؟!

هتف (قدرى) بالروسية :

ـ (أدهم) لا ينحنى أبدًا .

التفت إليه (كوربوف) بحركة حادة ، هاتفًا :

ـ وماذا عنك ؟!

(*) راجع قصة (البداية) .. العدد رقم (16) ، من سلسلة الأعداد الخاصة .

تراجع (قدرى) فى عنف ، وارتطم بالعمالقة الثلاثة ، فاستطرد (كوربوف) فى تعالٍ :

- أنت تعلم أنه بإمكانى قتلك كالجرذ ، بإشارة واحدة من يدى ، ولكننى أحترم موهبتك وأصابعك الذهبية ، التى يتحدثون عنها كثيرًا .

ثم مال نحوه ، مضيفًا :

- هل تعمل لحسابى أم ...

قاطعه (قدرى) ، وجسده المكتظ كله ينتفض :

- أم ..

اعتدل (كوربوف) بحركة حادة ، وهتف بأحد رجاله :

- أخرجه من هنا .. اتركه فى حراسة (جوركى) وباقى الرجال ..

جذب العملاق (قدرى) خارجًا ، وهذا الأخير يلقى نظرة بائسة أخيرة على (أدهم) و(منى) ، فمنحه (أدهم) ابتسامة هادئة ، وهو يقول بالعربية :

- إلى اللقاء يا صديقى .

انعقد حاجبا (كوربوف) فى شراسة ، عندما لم يفهم العبارة ، وانتظر حتى خرج (قدرى) من الكوخ ، وأضاف فى وحشية ، وكأنما يكمل عبارته الأخيرة :

- حتى انتهى من مهمتى هنا .

والتقت عيناه بعينى (أدهم) فى تحد ، وهو يضيف :

- نهائيًا .

وارتجف جسد (منى) ، ولكن عينا (أدهم) واصلتا تلك النظرة المتحدية ..

كان يتحدَّى الخطر ..

و(كوربوف) ..

والمــوت ..

الموت نفسه ..

* * *

على ارتفاع منخفض للغاية ، حلقت طائرات الهليوكوبتر الحربية الروسية ، بمحركاتها خافتة الصوت ، وبداخلها أكثر من ألف جندى ، من مقاتلى أقوى ثلاث دول ..

(روســيا) ..

و(أمريكا) ..

و(بريطانيا) ..

وبإشارة من (فيدور) ، راح المقاتلون يقفزون من الطائرات إلى الجليد ، وكل منهم ينطلق لاحتلال موقع متفق عليه ، فور أن تلامس قدماه الأرض ..

ست دقائق كاملة ، استغرقها هبوط الجنود ، واحتلالهم لمواقعهم ، قبل أن تنطلق الطائرات مبتعدة ..

وبإشارات صامتة ، تجمَّع الكل حول (فيدور) ، الذى قال بكلمات موجزة آمرة سريعة :

ـ سندور حول البقعة ، التى حددَّها الخبراء ، ورصدت عندها الأقمار الصناعية لدولنا تلك التحركات .

سأله جندى أمريكى فى اهتمام :

ـ هل تم تحديد نقطة الهجوم بدقة يا سيِّدى ؟!

أجابه (فيدور) فى سرعة :

ـ ليس تمامًا ، ولكننا حددنا المنطقة ..

سأله روسى :

ـ وكيف سنبدأ الهجوم ؟!

لم تكن لدى (فيدور) إجابة واضحة لهذا السؤال ؛ لذا فقد أجاب فى حزم ، أخفى به جهله :

ـ هم سيقودوننا إلى هذا .

سأله بريطانى :

ـ وكيف ؟!

لم يحاول (فيدور) إجابته هذه المرة ، ولكنه أشار بيده للجميع ، فانطلقوا يصنعون دائرة كبيرة ، لمحاصرة منطقة ماوسط الجليد ..

منطقة لا يدرى هو نفسه ، أين سيبدأ الهجوم فيها ، ولكنه ، وفقًا للخطة ، كان ينتظر مبادرة من رجال (كوربوف) .

مبادرة تقودهم إليه ..

وإلى وكره ..

مبادرة لا يدرى هو نفسه كيف ستأتى ..

كيف ؟!

عند تلك النقطة من أفكاره ، وبينما يتخذ الرجال أماكنهم بالضبط ، دوى ذلك الانفجار ..

انفجر ذلك الكوخ ، الذى أسر فيه (كوربوف) (أدهم) و(منى) ، وطار سقفه عاليًا ..

عاليًا جدًا ..

طار على نحو جعل جميع الجنود يتحفزون بمدافعهم وأسلحتهم ..

وجعل (فيدور) يتحفَّز بشدة ..

جسديًا وعقليًا ..

ربما كانت هذه هى المبادرة المنتظرة ..

ربمـا ..

لذا ، فقد اعتدل (فيدور) ، وسرى حماس شديد فى جسده ، وتدفَّق فى عروقه ، وهو يهتف بالرجال :

ـ استعدوا .

وتأهب الكل للقتال ..

القتال الأخير ..

★ ★ ★

على الرغم من رغبته الشديدة فى ألا يبدى ضعفه أمام عدوه ، لم يستطع (قدرى) أن يكبح تلك الدموع ، التى انسالت على وجهه فى غزارة ، وهو يجلس إلى جوار (كوربوف) ، فى سيارة هذا الأخير ، التى تنطلق بهما ، عائدة إلى الوكر السرى المنيع ، الذى استولى عليه من (سونيا) ، فالتفت إليه (كوربوف) ، وقال فى لهجة ، لم تفقد رنة الظفر والزهو بعد :

ـ سأمنحك عشرة ملايين دولار سنويًا .

لم يجب (قدرى) ، من فرط حزنه وألمه ، فتابع (كوربوف) فى صرامة :

ـ وستعمل كمستشار خاص لى .

بذل (قدرى) جهدًا ؛ ليتجاوز حزنه ، وهو يقول فى حدة :

ـ قلت لك : إننى أفضِّل الموت .

رمقه (كوربوف) بنظرة مقت ، وهو يقول :

ـ من يدرى ؟!.. ربما تحظى به .

كان موكبه قد اقترب من الوكر ؛ لذا فقد ارتفع حاجز من وسط الجليد ، كاشفًا المدخل السرى للوكر ، فعبرته السيارات إلى الداخل ، قبل أن يغلق مرة أخرى خلفها ..

ومن بعيد ، وعبر منظاره المقرِّب ، رصد (فيدور) ما حدث ، فهتف بالرجال :

ـ ها هو ذا .

وبإشارات متصلة من يديه ، أحاط المقاتلون بالوكر ، واستعدوا للهجوم ..

« هناك من يحيط بالمكان أيها الزعيم .. »

لم يكد (كوربوف) يهبط من سيارته ، داخل وكره ، حتى استقبله أحد رجاله بالعبارة ، فعقد حاجبيه ، قائلاً فى صرامة :

ـ كم عددهم ؟!

أجابه الرجل ، دون ذرة من القلق :

ـ يربو عن الألف .

نظر إليهما (قدرى) فى لهفة ، وتصوَّر أنه الأمل ، ولكن (كوربوف) قال فى استهتار عجيب :

ـ فقط .

ثم التفت إلى (جوركى) يسأله :

ـ هل استعدنا السيطرة على وسائل الأمن ، التى أوقفتها (سونيا) ؟!

أجابه (جوركى) فى اهتمام ، يشوبه الضيق :

ـ (يورى) استعادها فى لحظات .

التفت (كوربوف) إلى (قدرى) ، وكأنما يراقب رد فعله لما سيقول ، قبل أن يجيب :

ـ أبدهم إذن .

اعتدل (جوركى) ، وتألَّقت عيناه فى نشوة ، وهو يقول :

ـ كما تأمر أيها الزعيم .

ابتسم فى شراسة ، وهو مازال يواجه (قدرى) ، قائلاً :

ـ لا أحد يتحدَّى (كوربوف) ، ويبقى على قيد الحياة .

شعر (قدرى) بغصة شديدة فى حلقه ، فغمغم فى حدة :

ـ اللعبة لم تنته بعد .

أطلق (كوربوف) ضحكة عالية مجلجلة ، وهو يقول :

ـ بل انتهت .. وسترى هذا بنفسك .

قالها ، واتجه نحو قاعة السلاح ، ودفع رجاله (قدرى) ليتبعه فى قسوة ، وزعيم (المافيا) الروسية يواصل إطلاق ضحكاته الساخرة الظافرة ..

الشريرة ..

* * *

وفقًا للخطة الموضوعة ، أحاطت قوات الدول الكبرى الثلاث بوكر (كوربوف) ، إحاطة السوَار بالمعصم ، دون أن تترك ثغرة واحدة ، كافية لفرار جرذ صغير ، واستعد الكل بأسلحتهم للهجوم ، و ...

وفجأة ، انطلقت تلك الصواريخ ..

صواريخ صغيرة شديدة التفجير ، انطلقت من أماكن مختلفة من الوكر ، وهوت تتفجر وسط رجال (فيدور) ..

وفى قلب جليد (سيبيريا) ، دوت الانفجارات ..

ودوت ..

ودوت ..

وراح رجال قوات ثلاث دول يتناثرون ..

ويصابون ..

ويقتلون ..

وامتزجت الدماء بالجليد ..

وسالت ..

وجرت ..

وبكل توتره ، هتف (فيدور) ، عبر جهاز الاتصال الخاص :

- إنهم يهاجموننا بأسلحة قوية للغاية .. نريد إمدادات .. الكثير من الإمدادات .. أرسلوا الطائرات ..

ولكنه فوجئ بأن أحدًا لن يتلقَّى استغاثته أبدًا .

فنظام الأمن ، حول وكر (كوربوف) ، يعوق تبادل الإشارات ..

تمامًا ..

وهذا يعنى أن القصف سيستمر ، حتى النهاية ..

أو حتى الإبادة ..

« أخيرًا يا (سونيا) .. »

نطقها (كوربوف) فى شماتة شديدة ، وهو يواجه (سونيا جراهام) ، داخل تلك القاعة ، التى تحوى ذلك السلاح ، الذى سيحدّ من زعيم العالم الجديد ، وأطلت انفعالات الدنيا كلها من عينيه ، وهو يديرهما فى وجوه (يورى) و(قدرى) ، و(توركنيف) ، (جوركى) ، قبل أن يضيف :

- سلاحك الرهيب سيبدأ عمله ، وسيثبت للعالم كله قدرته على التدمير الفائق .

قالت فى برود عجيب :

- حقًّا ؟!

أشار إلى السلاح ، الذين لم ير (قدرى) مثيلاً له من قبل ، وهو يقول :

- تستطيعين أن تقرّى بأنك خسرت المعركة الآن يا (سونيا) ، وأن (كوربوف) هو الزعيم الجديد .. زعيم العالم .

رفعت أحد حاجبيها وخفضته ، قائلة :

ـ لم تتزعَّمه بعد يا (كولوف) .

التمعت عيناه فى شراسة ، وهو يقول :

ـ إنها مسألة لحظات يا (سونيا) .. (توركنيف) قرَّر الانضمام إلينا ، وعندما يضيف معادلته الناقصة إلى البرنامج ، سأصبح قوة لا تدانيها قوة .

ثم التفت إلى (توركنيف) ، قائلاً فى وحشية :

ـ أليس كذلك ؟!

بدا توتر شديد على وجه (توركنيف) ، فى حين أطلقت (سونيا) ضحكة عالية عابثة مجلجلة ، جعلت (كوربوف) يلتفت إليها فى شراسة ، لتقول فى سخرية كبيرة :

ـ عجبًا يا زعيم أوغاد (روسيا) .. هل تصوَّرت أن نظم أمن محكمة ، كتلك التى استخدمها فى مزرعتى ، خلت من نظام مراقبة ؟!

هتف فى غضب :

ـ مزرعتك .. إذن فأنت ...

قاطعته بنفس السخرية :

ـ نعم .. أنا (سوشا جريجورى) .. استخدمت نفس الحرفين الأولين من اسمى ، تمامًا كما يفعل (أدهم صبرى) ، وأنت لم تنتبه إلى هذا .

ومالت نحوه ، مضيفة ، وقد امتزجت شراستها بسخريتها :

ـ لأنك تتمتَّع بذكاء الذئاب فحسب .. بعبقرية الشوارع ، وليس بفكر المخابرات المنظَّم .

رمقها بأكثر نظرات العالم مقتًا ، وهو يقول :

ـ لن يصنع هذا فارقًا ؛ لأننى أمتلك الآن كل شىء .

قالت ساخرة :

ـ خطأ .

ثم أشارت إلى (توركنيف) ، مستطردة :

ـ لأن هذا الرجل لا يملك ما تسعى إليه .

هتف (يورى) فى عصبية :

ـ (إيفان توركنيف) هو الذى صنع هذا السلاح ، وهو وحده يمتلك معادلته الناقصة .

قالت (سونيا) فى سرعة :

ـ هذا صحيح تمامًا .

ثم ابتسمت ابتسامة كبيرة ، وهى تشدّ قامتها ، مستطردة :

ـ ولكن هناك مشكلة واحدة .

والتمعت عيناها ، مع استطرادتها :

ـ فهذا ليس (توركنيف) .. ليس (توركنيف) الحقيقى .

وانتفض جسد (كوربوف) فى عنف ..

فالمفاجأة كانت قوية ..

أكثر مما ينبغى .

* * *

11 ـ المهمة الأخيرة ..

« الحرب اشتعلت فى قلب (سيبيريا) .. »

نطقتها وزيرة الخارجية الأمريكية فى توتر ملحوظ ، وهى تراجع صور الأقمار الصناعية ، التى أرسلها مدير المخابرات على نحو عاجل ، فانعقد حاجبا الرئيس الأمريكى ، وهو يقول فى عصبية :

ـ دعيها تشتعل .

انعقد حاجباها فى ضيق ، وخاصة عندما أشاح بوجهه ، مستطردًا :

ـ إنها ليست أوّل حرب تشتعل .

قالت الوزيرة ، فى شىء من الحدة :

ـ الحروب الأخرى نحن أشعلناها .

قال فى حدة :

ـ وعجزنا عن إطفائها .

ثم التقط نفسًا عميقًا ، مضيفًا :

ـ دعينا نكتفى بالمراقبة هذه المرة ، طالما قرّر الروس القيادة .

جلست أمامه ، قائلة :

ـ وهل تتصورّ أنهم قادرون على حسم المعركة ، وإنقاذ العالم ؟!

التفت إليها ، قائلاً فى عصبية :

ـ وهل نحن كذلك ؟!

زمجرت ، قائلة :

ـ نحن أقوى دولة فى العالم .

زمجر بدوره ، وهو يقول :

ـ المعركة تدور على أرضهم .

صمتت لحظات ، حتى لا تدخل فى مشادّة عنيفة ، ثم سألته ، وهى عاجزة عن كتمان عصبيتها التقليدية :

ـ وماذا لو انتصروا ؟!

قال فى حدة :

ـ انتصرنا ... إنها قوات مشتركة .

التقطت نفسًا عميقًا ، فى محاولة للسيطرة على أعصابها ، قبل أن تقول :

ـ حسنًا .. ماذا لو انتصرنا ؟!

قال فى صرامة :

ـ إنها معركة سرية ، ولن يمكننا أن نزهو بانتصارنا .

قالت فى حدة :

ـ كنت أسأل عن ذلك المصرى .. (أدهم صبرى) .

صمت لحظات ، قبل أن يقول :

ـ المفترض أن يكون أمره قد انتهى الآن ، مادامت الحرب تشتعل هناك ، أما لو أنه قد نجا ، فالأوامر صريحة لدى الجميع .

صمت لحظة أخرى ، ثم انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يقول :

ـ القضاء على (أدهم صبرى) .. تمامًا .

والتمعت عينا الوزيرة ..

بمنتهى الشدة ..

★ ★ ★

مع تاريخه الوحشى كله ، لم يستطع (كوربوف) كتمان غضبه وسخطه الشديدين ، مع ضحكات (سونيا) الساخرة ، و(يورى) يصرخ :

ـ مستحيل !.. إنه (توركنيف) .. لقد التقيت به مرتين ،

أجابته (سونيا) فى سخرية :

- مستحيل أيها المتحذلق ؛ لأن (توركنيف) الأصلى لقى مصرعه ، منذ ستة أشهر كاملة .. أنا أمرت بقتله ، بعد أن حصلت منه على المعادلة التى كانت تنقصنى ، أما من التقيت به ، تحت كاميرات المراقبة الخفية ، فهو ممثل مسرحى مغمور ، يدعى (نارونيف) ، انتقيته لشبهه الكبير بالعالم .

غمغم الرجل ، الذى ينتحل شخصية (توركنيف) ، وهو يرتجف :

- هذا صحيح .

فى حركة سريعة غاضبة ، سحب (كوربوف) مسدسه ، وأطلق منه رصاصة .. رصاصة اخترقت رأس الممثل ، الذى اتسعت عيناه ، فى رعب وألم ، قبل أن يسقط جثة هامدة ، تحت قدمى (يورى) ، الذى ارتجف فى شدة ، وهو يقفز للخلف مبتعدًا ..

أما (كوربوف) ، فقد عاد يستدير إلى (سونيا) ، ويصوّب إليها مسدسه ، هاتفًا :

- دورك .

بدت شديدة الهدوء ، إلى حد مثير ، أدهش (قدرى) نفسه ، وهى تقول فى استهتار :

- لن تجرؤ .

اندهش رجال (كوربوف) ؛ لأنه لم يطلق النار فورًا ، وهتف (جوركى) فى حدة :

- إنها تستحق القتل أيها الزعيم .

أشعلت (سونيا) واحدة من سجائرها الرفيعة ، وهى تقول :

- غبى .. لست حتى بذكاء زعيمك الوحشى ، الذى أدرك أن قتلى سيجعله يخسر كل شىء .

والتمعت عيناها ، مع إضافتها :

- السبيل الوحيد أمامه هو التحالف .

قال (جوركى) فى غضب مستنكر :

- التحالف ؟!

زمجر (كوربوف) ، وهو يقول فى خشونة شرسة :

- ماذا تعرضين بالضبط يا (سونيا) ؟!

نفثت دخان سيجارتها فى قوة ، وهى تقول :

ـ كما سمعت يا عزيزى (كوربوف) .. التحالف .. أنت تملك السلاح ، وأنا أملك المعادلة الناقصة لتشغيله ، وكل منا لا يمكنه أن يعمل دون الآخر ؛ لذا فالوسيلة الوحيدة هى أن نتحالف معًا ؛ لنصبح أقوى قوة فى العالم .

قال (كوربوف) فى حذر :

ـ أخبرينى أين المعادلة ، وسوف ...

قاطعته فى صرامة :

ـ المعادلة هنا يا رجل .. فى رأسى .. لا يوجد سبيل سوى أن نتعاون ..

ثم انعقد حاجباها فى شدة ، وهى تضيف :

ـ ودون أية محاولة للخداع .

صمت (كوربوف) طويلاً ، وهو يتطلّع إليها فى شك حذر ، فقال (جوركى) فى عصبية :

ـ لا تسمح لها أيها الزعيم بـ ...

صرخ فيه (كوربوف) ، فى شراسة وحشية :

ـ اخرس .

صدم (جوركى) للعبارة ، وتراجع فى هلع مستنكر ، فى حين قالت (سونيا) بمنتهى الصرامة :

ـ ما قولك يا (كولوف) ؟!

هتفت فى حدة :

ـ (كوربوف) يا (سونيا) .. (كوربوف) ..

ثم مد يده إليها ، مستطردًا :

ـ ولكن هذا لا يمنع من تحالفنا .

ابتسمت فى ظفر ، وهى تمد يدها لتصافحه ، قائلة :

ـ بالتأكيد .

اقتربت يداهما ، و ...

وفجأة ، دوت تلك الفرقعة ..

فرقعة قوية ، عند سقف القاعة ، أعقبها هبوط جسد بشرى ، من السقف ، إلى قمة السلاح الرهيب ..

شخص التفتت إليه عيون وأسلحة الجميع ..

ثم توقَّف المشهد كله فى ذهول ..

(قدرى) وحده ، هتف فى انفعال جارف :

ـ كنت أعلم .. كنت واثقًا .

فذلك الشخص ، الذى هبط على قمة السلاح ، كان آخر شخص يمكن أن يتصوَّر الجميع وجوده فى القاعة ..

أو حتى فى هذه الحياة ..

كان (أدهم) ..

(أدهم صبرى) ..

شخصيًا ..

★ ★ ★

كيف ؟!..

هذا هو السؤال ..

كيف نجا (أدهم) من ذلك الفخ الرهيب ؟!..

كيف نجا من انفجار الكوخ ، المحاط تمامًا برجال (كوربوف) ؟!

بل وكيف وصل إلى وكر (كوربوف) ؟!..

وإلى قلب قاعة السلاح الرهيب مباشرة ؟!..

أسئلة عديدة كثيرة ومعقَّدة ..

ولكن الأجوبة تحتاج إلى أن نعود بالزمن إلى الوراء ..

إلى تلك اللحظة ، التى غادر فيها (كوربوف) كوخه ، وأغلق بابه خلفه فى إحكام ، وبدأ تسرُّب الغاز وتدفُّق المياه ..

« (أدهم) ... »

لم يجب (أدهم) هتاف (منى) ، وقد انعقد حاجباه ، وبدا شديد التركيز ..

إلى أقصى حد ..

وبحركة غريزية ، كتمت (منى) تنفُّسها ، وهى تحاول إطالة فترة بقائها على قيد الحياة ، ولكن (أدهم) قال فى هدوء أدهشها :

ـ ذلك الغاز أخف من الهواء ، وفى هذا الطقس شديد البرودة ، سيستغرق دقيقة على الأقل ، حتى يصل إلى أنوفنا .

شعرت بالمياه الباردة كالثلج ترتفع إلى قدميها ، وهى تقول فى توتر :

ـ وماذا عن المياه ؟!

لم يجب مباشرة ، وواصل تركيزه لحظة ، ثم فوجئت به ، يحل يديه ، وينحنى لحل وثاق قدميه ، وهو يجيب :

ـ ستستغرق وقتًا أكثر .

حدّقت فيه بدهشة بالغة ، أقرب إلى الذهول ، وهو ينهض ليحل قيودها فى سرعة ، جعلتها تهتف ، وقد اختنق صوتها ، من فرط الانفعال :

ـ كيف ؟!

أجابها ، وهو يرفع أمامها قطعة رفيعة من السلك ، يمسكها بسبّابته وإبهامه :

ـ احتفظ بها دومًا فى طرف كم سترتى .

حدّقت فى قطعة السلك ، وهو يميل لحل وثاق قدميها ، مضيفًا :

ـ وكثيرًا ما أفادتنى فى مواقف شبيهة .

فوجئت بأنها قد تحرّرت تمامًا ، فقالت مرتجفة :

ـ وما فائدة هذا ؟!.. القنابل ستنفجر .

أشار إلى فقاقيع من الهواء ، تتصاعد من وسط المياه ، التى ارتفعت من حولهما ، وهو يقول :

ـ هل تعرفين ما هذه ؟!

أجابته فى دهشة وتوتر :

ـ مجرد فقاقيع هواء .

قال ، وهو يغوص بيديه وسط المياه المثلّجة ، ويعالج شيئًا ما :

ـ بل هى سبيلنا للنجاة يا عزيزتى .

تساءلت بمنتهى الدهشة :

ـ وكيف ؟!

واصل معالجته لذلك الشىء لحظات ، قبل أن يجذب يده إلى أعلى ، فانبعث صوت قوى ، وانخفض منسوب المياه فى سرعة مدهشة ، جعلتها تهتف :

ـ ما هذا ؟!

أجابها ، وهو يجذبها إليه فى حزم :

ـ نفق .. نفق يقود إلى هذا الكوخ .

ودفعها داخل ذلك النفق ، مع المياه المتدفقة ، مستطردًا :

ـ ويقودنا خارجه .

شعرت بالمياه المثلجة تحيط بها ، وهو يثب خلفها ، ويغلق مدخل النفق خلفه ، فهتفت :

ـ وكيف علمت بوجوده ؟!

أجابها فى اقتضاب :

ـ لدى مصادرى .

ثم دفع رأسها تحت المياه ، وغاص خلفها ..

كانت المياه التى تحيط بهما باردة كالثلج ، ولكنه راح يسبح فيها ، وهو يحيط وسطها بذراعه ، وهى تسبح معه بكل قوتها ، ولكن جسدها كله كان ينتفض ..

ويرتعد ..

ويتجمَّد ..

ومن خلفهما دوى الانفجار ..

انفجار رهيب ، جعل جسديهما يرتجفان فى قوة وسط المياه ، وشعرت هى بأنفاسها تضيق ، وبأطرافها تتجمَّد ، وراحت تقاوم فى استماتة ، ولكن أطرافها تجمَّدت أكثر ..

وأكثر ..

ثم راح كل شىء يظلم من حولها ، وانتفض جسدها فى عنف أكثر ، قبل أن يهدأ كل شىء ، وتغيب عن الوعى تمامًا ..

لم تدر كم استغرقت من الوقت ، فى غيبوبتها هذه ، ولكنها استعادت وعيها ، لتجد (أدهم) يجاهد لإفاقتها ، على الرغم من المياه الباردة ، التى تغمر جسده كله ..

والعجيب أنها قد شعرت بالدفء ..

دفء عجيب ، وكأنها ترقد إلى جوار قرص الشمس نفسه ..

وبكل دهشتها وتوترها وانفعالها ، غمغمت :

ـ ماذا حدث ؟!

ابتسم فى وجهها ، قائلاً فى حنان :

ـ لقد نجوت .

قالت ، وهى تمس وجهه بسبَّابتها :

ـ أنت أنقذتنى .. كالمعتاد .

قال فى حنان دافق :

ـ حمدًا لله على سلامتك يا حبيبتى .

ارتفع حاجباها فى حنان وحب ، ثم استعاد ذهنها موقفهما ، فاعتدلت فى حركة حادة ، وتلفَّتت حولها ، هاتفة :

ـ أين نحن ؟!

كانت راقدة داخل مكان أشبه بمصنع صغير ، محاط بأنابيب ومواسير ، تشع منها حرارة شديدة ، وسمعت (أدهم) يجيب :

ـ نحن داخل وكر (كوربوف) .. فى منطقة توزيع التدفئة .

هتفت فى دهشة بالغة :

ـ وكيف وصلنا إلى هنا ؟!

أجابها ، وهو يساعدها على النهوض :

ـ ذلك النفق فى الكوخ قادنا إلى هنا .

حدّقت فى وجهه بدهشة بالغة ، وهى تقول :

ـ كيف عرفت كل هذا ؟!

ـ سبق وأن أخبرتك .

ثم مال نحوها ، مضيفًا :

ـ لدى مصادرى .

تطلّعت إليه بنظرة عتاب ، قائلة :

ـ (أدهم) .

هزّ كتفيه ، قائلاً :

ـ الواقع أن أحدهم أرسل لى خريطة كاملة ، بكل تفاصيل وممرات ومداخل ومخارج وكر (سونيا) .

قالت فى دهشة شديدة :

ـ من أرسلها ؟!

قلب كفيه ، وهزّ كتفيه ، قائلاً :

ـ سيدهشك أننى لا أعرف من أرسلها ، ولا حتى كيف نجح فى إرسالها ، ولكنها كانت خريطة شديدة الدقة ، على نحو مدهش ، وكأن أحدهم رسمها من داخل المكان .

سألته فى قلق :

ـ وكيف يمكنك الجزم ؟!

أشار إلى ما حوله ، قائلاً :

ـ إننا هنا ، ولقد نجونا .. أليس كذلك ؟!

بدت حائرة لحظات ، قبل أن تقول :

ـ ألا تخشى أن ...

قاطعها فى حزم ، وهو يمسك جانبى وجهها فى حنان ، قائلاً :

ـ (منى) .. نحن هنا .. قاب قوسين أو أدنى من ذلك السلاح الرهيب ، الذى يهدّد أمن وسلامة العالم كله .. العالم يا (منى) ، وليس (مصر) وحدها .

غمغمت ، وهى تتطلّع إلى عينيه :

ـ ووسط رجال (المافيا) الروسية .

قال فى حزم :

ـ المهم أن ننقذ العالم .

سألته ، وهى تذوب فى عينيه الشبيهتين بعينى أسد :

ـ وكيف ؟!

التقط نفسًا عميقًا ، وقال فى حزم شديد :

ـ لدى خطة .

وكان ما كان ..

★ ★ ★

« مستحيل !.. »

هتفت (سونيا) بالعبارة ، وجسدها كله ينتفض ، من فرط الانفعال والغضب ، فى حين اتسعت عينا (كوربوف) عن آخرهما ، وهو يحدِّق فيما بدا له أعقد من مجرَّد مستحيل !..

لقد قتله بنفسه ..

قتله ، وشاهد الكوخ ينفجر ، ورجاله يحيطون به من كل صوب ..

فكيف ؟!..

كيف ؟!

« كيف ؟!.. »

صرخ بالسؤال ، بكل انفعال الدنيا ، فأجابه (أدهم) ، بلهجته الساخرة دومًا :

ـ كيف ماذا يا هذا ؟!.. كيف نجوت من فخك المحكم ، أم كيف وصلت إلى ما تصوَّرتم أنه منيع !

هتفت (سونيا) فى شراسة :

ـ نعم ، كيف وصلت ؟! لقد صممت هذا الوكر بنفسى ، وأعلم جيدًا أنه لا سبيل للوصول إليه ، دون أن ينكشف أمر من يحاول !!..

هزَّ (أدهم) كتفيه فى لا مبالاة ، على الرغم من أن كل فوهات أسلحة رجال (كوربوف) قد صوِّبت إليه ، وقال :

ـ الواقع أن هذا كان مستحيلاً .

ثم أشار إلى (كوربوف) ، مستطردًا فى سخرية :

ـ لولا أن هذا قادنا إليه .

انتفض جسد (كوربوف) ـ وهو يهتف مستنكرًا :

ـ أنـا ؟!

بدا (أدهم) أكثر سخرية ، وهو يجلس على قمة السلاح فى استهتار ، قائلاً :

- هـل تصوّرت أن ذكـاء الذئـاب يمكن أن يتفـوّق على ذكـاء الخبراء ؟!.. هراء .. لقد كنا ندرك ، منذ اللحظة الأولى ، ومنذ كشفنا بديلك الزائف ، أن هدفك هو أن نسعى نحن لإخراج (توركنيـف) من أجلك ، خاصة وأن بديلك قد شرح لنا مـا لاينبغى أبـدًا أن يعرفه بديل ، معد للوقوع فى يد الخصم .

بدا (كوربوف) شديد الغضب مما يقوله (أدهم) ، ولكن هـذا الأخير استطرد بنفس الاستهتار :

- كنا أمام احتمالين ، لا ثالث لهما .. إما أنك ساذج إلى درجة البلاهة ، وإما أنك تقصد كل هذا لسبب ما ، وبالطبع كان الاحتمال الثانى هو الأرجح ، لذا فقد بنينا خطتنا كلها على هذا الأساس .

عضّ (كوربوف) شفته السفلى فى حنق ، و(أدهم) يتابع :

- وكنا بالطبع على ثقة تامة من أن نظام الأمن فى المزرعـة ، يحوى جهاز مراقبة دقيق ، وأن كل خطوة نخطوهـا ، وكـل كلمـة ننطقها ، ستنتقل مباشرة إلى ...

صمت لحظة ، ثم التفت إلى (سونيا) ، مضيفًا فى سخرية شديدة :

- إلى عزيزتنا (سونيا) .

بدت (سونيا) شديدة الغيظ ، وهى تقول :

- كنتم تعرفون ؟!

أشار بسبّابته ، قائلاً :

- ومنذ اللحظة الأولى .

هتفت :

- أنتم .. أنتم ...

قاطعها (كوربوف) ، وهو يهتف به فى حدة :

- إذن فقد كنت تعلم أنه كمين ..

قال (أدهم) ، ملوّحًا بيده :

- كمين سيقودنا إلى الوكر ، الذى فشل الجميع فى العثور عليه .. ولِمَ لا إذن ؟!

فجأة ، اطلق (قدرى) ضحكة ..

ضحكة عالية ، مجلجلة ، ظافرة ..

أطلقها وهو يهتف :

- كنت أعلم .. كنت واثقًا مما ستفعله .. كنت واثقًا .

احتقن وجه (كوربوف) ، وهو ينظر إليه فى غضب هـادر ، فى حين حملت لهجة (أدهم) كل ظفر وسخرية الدنيا ، وهو يقول :

- وهـا أنـذا .

احتقن وجه (كوربوف) أكثر ، وصرخ فى رجاله ، بكل غضب الدنيا :

- اقتلـوه .

« لا .. السلاح .. »

هتفت (سونيا) بالعبارة ، وجسدها كله يرتجف ، من قمة رأسها ، وحتى أخمص قدميها ، من فرط الانفعال ، فى حين صرخ (كوربوف) فى ثورة وحشية :

ـ اقتلوا هذا الرجل .

ارتفعت فوهات الأسلحة كلها نحو (أدهم) ، الذى انزلق عن سطح السلاح فى خفة مدهشة ؛ ليسقط خلفه مباشرة ، و(سونيا) تصرخ :

ـ لا تطلقوا النار على السلاح .

كان (أدهم) قد هبط عند الجانب ، الذى يحوى كل أجهزة التحكُّم فى السلاح ، فاندفع نحوه (يورى) ، هاتفًا :

ـ لا .. لا تحاول .

ولكن لكمة من قبضة (أدهم) أطاحت به بعيدًا فى قوة ، فارتطم بالسلاح ، ثم سقط أرضًا ، و(كوربوف) يصرخ :

ـ أوقفوه .. أوقفوه بأى ثمن .

اندفع رجال (كوربوف) يدورون حول السلاح الضخم ، ونهض (يورى) يصرخ :

ـ لا تسمحوا له بتشغيله .. ما زالت هناك معادلة ناقصة .

ولكن (أدهم) أدرك ما تعنيه هذه العبارة ..

لو تم تشغيل السلاح ، بدون هذه المعادلة الناقصة ، ستحدث حتمًا كارثة ..

كارثة قد تدمِّر السلاح ..

لذا فقد اندفع نحو الأجهزة ، ودفع ذراع التشغيل فى قوة ، والرصاصات تتناثر حوله كالمطر ، و(يورى) يصرخ ، وهو يندفع محاولاً منعه :

ـ لا .. لا .. ستفسد كل شىء .

لم يدر وهو يندفع ، أن اندفاعته هذه ستكون تذكرة النجاة ..

نجاة (أدهم) ..

فمع اندفاعته ، صنع حاجزًا بين (أدهم) والرصاصات ، دون أن يدرى ..

وواصلت الرصاصات طريقها ..

واخترقت جسده ..

ومع شهقة (يورى) القوية المذعورة ، بدأ السلاح عمله ..

وصرخت (سونيا) :

ـ لا .. لا .. أوقفوه .

عاد الرجال يطلقون الرصاصات نحو الهدف ..

ولكن المشكلة كانت تكمن فى الهدف ذاته ..

لقد وثب (أدهم) ، كما لو أنه يطير ، واختفى لحظة خلف السلاح ، قبل أن يظهر مرة أخرى عند قمته ، ويقفز منقضًا على (جوركى) ، الذى حاول أن يصد انقضاضته ، ولكن (أدهم) ارتطم به قبل أن يفعل ، وانهال على وجهه بثلاث لكمات بالغة السرعة ، وهو ينتزع منه سلاحه ، ويلتفت به إلى الآخرين .. كان يبغض القتل كما لا يبغض أى شىء آخر ، ولكنها كانت لحظة ، لابد وأن يقاتل فيها من أجل هدف واحد ..

إنقاذ (مصر) ..

وإنقاذ العالم ..

وصرخت (سونيا) ، وهى تندفع نحو (كوربوف) :

ـ استدع الآخرين .. استدع كل رجاله .. لابد من إيقافه ، وإيقاف تشغيل السلاح ، قبل أن نخسر كل شىء .

كان وجه (كوربوف) يشتعل بكل غضب الدنيا ، وهو يراقب رجاله ، الذين استداروا لمواجهة (أدهم) ، ولكن هذا الأخير استقبلهم بوابل من الرصاصات ، حصدهم حصدًا ..

وبكل سرعته ووحشيته ، جذب (كوربوف) سلاحه ، ووثب نحو (قدرى) ، وأحاط عنقه بذراعه فى شراسة ، وألصق فوهة مسدسه بصدغه ، وهو يصرخ :

ـ توقَّف يا هذا .. توقَّف وإلا قتلته كالجرذ الحقير .

التفت إليه (أدهم) فى سرعة ، فصرخ (كوربوف) فى وحشية :

ـ أقسم أن أقتله .

وصرخت (سونيا) :

ـ أوقف السلاح يا (أدهم) .. أوقفه وإلا فسيقضى علينا جميعًا ..

أجابها (أدهم) ، وهو يصوِّب سلاحه إليها وإلى (كوربوف) :

ـ وهذا سينقذ العالم .

هتفت فى عصبية بالغة :

ـ وماذا سيصيب العالم ؟!.. هناك دومًا من يحكمه ويسيطر عليه .. راجع التاريخ وستدرك أننا على حق .. ما الفارق إذن ؟!.. ما الفارق لو أن (أمريكا) هى زعيمة العالم ، أو أننا نحن نسيطر عليه .

قال فى صرامة :

ـ (أمريكا) لديها قانون .

صرخت (سونيا) :

ـ ونحن أيضًا لنا قانوننا .

صرخ (كوربوف) بكل وحشية :

ـ هل ستواصلون درس التاريخ السخيف هذا .. قلت لك : إنى سأقتل رفيقك بلا رحمة ، لو لم توقف هذا السلاح .

صمت (أدهم) لحظة ، ثم قال فى حزم :

ـ ماذا ينبغى فى رأيك ؟!

هتف (قدرى) فى حماس :

ـ لا تبالى به يا صديقى .. لا تبالى به أو بى .. قم بواجبك ، وبما يمليه عليك ضميرك ، حتى ولو ..

ارتفع من خلفه صوت أنثوى حازم ، يقول :

ـ كان يقصدنى أنا بسؤاله يا عزيزى .

انتفض (قدرى) ، مع سماعه الصوت ، والتفت (كوربوف) و(سونيا) إلى مصدره فى جد ، فارتطمت عينا الأول بفوهة مسدس ، مصوبة إلى رأسه ، وخلفها ملامح (منى) الصارمة ، وهى تقول :

ـ (أدهم) لم ينجح وحده .

انعقد حاجبا (سونيا) فى غضب شديد ، شاركها فيه (كوربوف) ، وهو يطلق زمجرة وحشية رهيبة ، فى حين أطلق (قدرى) ضحكة عالية ، ارتج معها جسده المكتظ كله ، وجعلت (كوربوف) يصرخ :

ـ لا أحد يفعل هذا مع (كوربوف) .

قالها ، وهو يجذب إبرة مسدسه فى قوة ، ثم يلصق فوهة المسدس أكثر بصدغ (قدرى) ، و ...

ووثبت (منى) ..

وثبت تركل (كوربوف) فى أنفه مباشرة ..

ومع الركلة العنيفة ، اختل توازن (كوربوف) ..

وضغط الزناد ..

وانطلقت الرصاصة ..

انطلقت وفوهة المسدس تبتعد عن رأس (قدرى) بسنتيمتر واحد ..

وشعر (قدرى) بدوى هائل فى أذنيه ..

دوى كاد يفقده حاسة السمع ، ويفقده وعيه كله ، لولا أن ارتفع فجأة دوى آخر ..

دوى أشد عنفًا ، وأكثر قوة ..

دوى انطلق من السلاح ، الذى راح يرتج فى عنف ، وبدأت قمته تكتسب لونًا أحمر ..

واتسعت عينا (كوربوف) ، فى حين صرخت (سونيا) :

ـ أيها الأغبياء .. لقد أفسدتم كل شىء .

قالتها ، وانطلقت تعدو خارج القاعة ، فى حين استدار (كوربوف) إلى (منى) بزمجرة وحشية ، وضرب يدها الممسكة بالمسدس فى قوة ، قبل أن يصرخ :

ـ لا أحد يفعل هذا بالزعيم (كوربوف) .

استعدت (منى) لمواجهته ، فى حين ارتفع صوت (أدهم) ، وهو يقول فى صرامة غاضبة :

ـ هل تكمن قوتك كلها فى مهاجمة النساء ؟!

استدار إليه (كوربوف) فى وحشية ، وهو يقول :

ـ ربما لأن الرجال يحتمون بالأسلحة .

هبط (أدهم) إليه فى هدوء ، وألقى السلاح جانبًا ، وهو يقول :

ـ (منى) .. خذى (قدرى) ، ونفذى الجزء الأخير من الخطة .

قالت فى قلق ، وهى تجذب (قدرى) إليها :

ـ وماذا عنك ؟!

اتخذ (كوربوف) وقفة قتالية ، وهو يقول فى وحشية :

ـ لا تقلقى بشأنه .. سينتهى أمره هنا .

اتخذ (أدهم) وقفة قتالية بدوره ، وهو يقول فى صرامة :

ـ اذهبى .

جذبت (منى) (قدرى) إليها ، وهى تندفع به نحو مخرج سرى ، فهتف وهو يتبعها لاهثًا :

ـ (أدهم) .. سأنتظرك يا صديقى .

التمعت عينا (كوربوف) ببريق مخيف ، وهو يقول :

ـ لو تصورت أنك تجيد القتال ، فسيعلمك (كوربوف) كيف تقاتل بحق .

كان السلاح قد بدأ يرتج فى قوة أكبر ، ويصدر صوتًا مخيفًا للغاية ، فقال (أدهم) فى صرامة :

ـ وهل تتصور أنك ستجد الوقت لهذا ؟!

لم يكد ينطقها ، حتى تعالى وقع الأقدام العديدة ، التى تندفع نحو المكان ، فابتسم (كوربوف) فى شراسة ، قائلاً :

ـ هل ستجده أنت ؟!

ومع نهاية عبارته ، اندفع عدد من رجاله داخل القاعة ، وارتفعت فوهات أسلحتهم نحو هدف واحد ..

نحو (أدهم) ..

(أدهم صبرى) ..

رجل المستحيل ..

★ ★ ★

فجأة ، وكما بدأت تلك الصواريخ الدفاعية ، توقَّفت ، وساد هدوء عجيب فى المكان ..

هدوء جعل أحد البريطانيين يهتف ، وهو يتلفَّت حوله ، متأملاً عشرات الجثث ، الغارقة فى بحر من الدم والجليد :

ـ ماذا حدث ؟!

أجابه (فيدور) فى توتر :

ـ لست أدرى !.. إما أن ذخيرتهم قد نفدت أو ...

بتر عبارته ، فسأله أمريكى :

ـ أو ماذا ؟!

بدا حائرًا ، وهو يقول :

ـ إن شيئًا أوقفهم .. شىء ما ، أو ...

صمت مفكرًا لحظات أخرى ، قبل أن يضيف :

ـ أو شخص ما .

نظروا إليه فى دهشة حائرة ، وتلفَّتوا إلى بعضهم البعض ، وكأن كل منهم يبحث عن الجواب لدى الآخر ، وهم أحد الروس بإلقاء سؤال ما ، لولا أن دوى تحت أقدامهم انفجار مكتوم ، جعل معظمهم يفقد توازنه ، فهتف بريطانى آخر :

ـ ماذا يحدث ؟!

انعقد حاجبا (فيدور) فى شدة ، دون أن يجيب ، وراح يتلفَّت حوله فى توتر ، قبل أن يهتف أحد رجاله :

ـ هنــاك .

التفت الجميع إلى حيث يشير الرجل ، وارتفع حاجبا (فيدور) بمنتهى الدهشة ، وهو يحدّق فيما أمامه ..

فوسط هذه الظروف ، بدا المشهد الذى أمامه مذهلاً ..

إلى حد كبير ..

★ ★ ★

عندما اقتحم رجال (كوربوف) القاعة ، وصوبوا أسلحتهم نحوه ، تصورَ (أدهم) أنها النهاية حتمًا هذه المرة ..

ولكن المدهش أنه لم يبال بهذا كثيرًا ..

لقد بلغ ما كان ينشده ..

أنقذ (مصر) ..

والعـالم ..

منع الإسرائيليين من تنفيذ هدفهم الرئيسى ، وتحقيق السيطرة على العـالم ..

دمَّر السلاح الرهيب ..

السلاح الذى سعى الجميع خلفه ..

السلاح الذى سينفجر خلال لحظات ..

لـذا فقد استدار إلى رجال (كوربـوف) ، وشـد قامتـه فـى مواجهتهم ، وكأنه يتحدَّى أسلحتهم كلها بصدره العار ، و ...

وفجأة ، دوى الانفجار ...

انفجرت قمة السلاح فى قوة ، وارتفعت لترتطم بالسقف ، ثم هوت وسط القاعة بدوى عنيف ..

هوت لتسحق اثنيـن مـن رجـال (كوربـوف) ، وتسد الطريق أمام الآخرين ، والسلاح يواصل ارتجاجاته ، التى أصبحت شديدة العنف ، وراح يطلق صوتًا يصم الآذان ..

وبكل غضبه وثورته ، وثب (كوربوف) نحو (أدهم) ، صارخًا :

ـ لن تفلت بفعلتك هذه .

مال (أدهم) بحركة سريعة ، متفاديًا انقضاضة (كوربـوف) ، ثم اعتدل يلكم (كوربوف) فى أنفه بكل قوته ..

وطار جسد (كوربوف) فى عنف ، وارتطم بسلاحه ، وسقط عند قاعدته ، وحاول أن ينهض ، وهو يصرخ :

ـ عليكم به يا رجال .. عليكم به .

ولكنه عندما اعتدل ، لم يكن هناك أدنى أثر لـ (أدهم) ..

ولكن السلاح الرهيب كان يرتج فى عنف أكثر ، وأجهزة التحكم تصدر صفيرًا قويًا تحذيريًا ، قبل أن يدوى الانفجار ..

الانفجار العنيف ، الذى دمَّر الوكر كله ..

دمره بكل ما فيه ..

ومن فيه ..

وعبر ذلك الممر السرى ، الذى خرجت منه (منى) مع (قدرى) ، كان (أدهم) يعدو بكل قوته ..

ويعدو ..

ويعدو ..

سمع الانفجار من قلبه ، وشعر بلفح النيران ، التى انطلقت عبر الممر ، ولكنه لم يتوقَّف ..

ولم ينظر حتى خلفه ..

كان يدرك أن النيران تطارده بألسنة لهب رهيبة ..

ولكنه لم يتوقَّف ..

لقد بلغ نهاية الممر ، وثب يتعلَّق بذلك السلم ، الذى يقود إلى المخرج العلوى ..

كان الممر أسفله قد تحوَّل إلى أتون من اللهب ، وسحابة مشتعلة تتصاعد نحوه ..

وتتصاعد ..

وتتصاعد ..

كان الأمر قد تحوَّل إلى سباق رهيب ، بينه وبين اللهب ..

وبينه وبين الموت ..

كانت أنفاسه تضيق ، مع الحرارة الرهيبة وسط (سيبيريا) ، وهو يصعد السلم فى سرعة رهيبة ، اكتسبها من أيام عمله فى القوات الخاصة ..

لحظات رهيبة عاشها ، والنيران تقترب منه ..

وتقترب ..

وتقترب ..

حتى بلغ المخرج العلوى ، فدفعه إلى أعلى ، ووثب عبره ، ثم أغلقه خلفه فى قوة ، وتراجع إلى الخلف ، لتندفع ألسنة اللهب لحظات من حول المخرج ، لتذيب ما حوله من جليد ، قبل أن يهدأ كل شىء ، وينبعث صوت (منى) المرتجف ، وهى تقول :

- (أدهم) .

التفت إليها ، وهو يثب واقفًا ، وانتبه فجأة إلى ما حوله ..

كان يقف معها ومع (قدرى) وسط ثلوج (سيبيريا) ، وحولهما مساحة واسعة خالية يحيط بها أكثر من سبعمائة مقاتل ، من ثلاث جنسيات مختلفة ، تعود إلى أقوى ثلاث دول فى العالم ..

وكانوا جميعهم يصوبون أسلحتهم نحو هدف واحد ..

نحـوه ..

وفى مرارة وأسى ، غمغم (قدرى) ، وهو ينهض مرتجفًا :

ـ إنها النهاية هذه المرة يا صديقى .

وكان من الواضح أنه على حق تمامًا ..

إنهم يقفون فى العراء ، وسط ثلوج كثيفة ، وألسنة اللهب ما زالت تملأ الممر الوحيد ، وتذيب ما حوله من جليد ، ومئات الأسلحة مصوبة نحوهم ..

إنها النهاية لا ريب ..

« ماذا سنفعل يا (أدهم) ؟!.. »

نطقتها (منى) فى صوت مرتجف ، فالتطق نفسًا عميقًا ، وضمها إليه ، وهو يشد قامته فى قوة ، قائلاً فى حزم وصلابة :

ـ لن ننحنى .

تطلّع إليه (فيدور) ، وهو يعلم أن القوات كلها تنتظر إشارة واحدة من يده ، لتسحق (أدهم) ورفيقيه سحقًا ..

ولكن بحرًا مشتعلاً كان يلتهب فى رأسه ..

هذا الرجل ، الذى يصوبون أسلحتهم إليه ، أنقذهم ببسالته من موت شبه محقق ، وأنقذ العالم من عصر مظلم رهيب ..

أنقذ بلاده ..

وزوجته ..

وأولاده ..

أنقذه هو شخصيًا ..

التقط (فيدور) نفسًا عميقًا ، حسم به أمره ، قبل أن يخفض سلاحه ، ويصرخ بكل قوته :

ـ انتبـاه .

مع صرخته ، خفض الجنود أسلحتهم بحركة واحدة ، على اختلاف جنسياتهم ، واتخذوا وقفة انتباه عسكرية ، فى حين تقدَّم هو خطوتين إلى الأمام ، وقال بنفس القوة :

ـ سيِّد (أدهم) .

ثم رفع يده بتحية عسكرية ، فائقة القوة والاحترام ..

وفى آن واحد ، ودون أن يفقدوا وقفتهم العسكرية ، أدى الجنود كلهم تحية عسكرية مماثلة ..

قوات أقوى ثلاث دول فى العالم ، أدت كلها التحية لرجل واحد ..

(رجل المستحيل) ..

« (أدهم) .. قل شيئًا .. »

نطقتها (منى) فى خفوت منفعل ، وهى تلتصق بـ (أدهم) ، الذى ظلَّ صامتًا لحظات ، وكأنه يحاول استيعاب الموقف المحيط به ، قبل أن يلتفت إليها ، قائلاً :

- (منى) .. أتتزوجيننى ؟!

وانتفض قلبها فى صدرها ...

بمنتهى القوة ..

★ ★ ★

12 - الـوداع ..

« مســـــتحيل !!.. »

هتفت الوزيرة الأمريكية بالكلمة فى غضب واستنكار بالغين ، فأشاح الرئيس الأمريكى بوجهه ؛ ليتحاشى النظر إلى ملامحها القبيحة ، فتابعت فى حدة :

- كانت لديهم أوامر بإطلاق النار عليه فور رؤيته .

قال الرئيس فى عصبية :

- هل يمكنك الاعتراف بهذا ؟!

تراجعت كالمصدومة ، فاعتدل يكمل فى صرامة ، امتزجت بعصبيته :

- لقد رفض الجنود تنفيذ الأمر .. رفضوا كلهم بلا استثناء واحد .. لم يستطع أحدهم ، مع انفعال اللحظة ، أن يقتل الرجل ، الذى أنقذ العالم .

غمغمت فى سخط :

- كان ينبغى أن يطيعوا الأوامر .

لوَّح بيده ، قائلاً :

ـ رجالنا فقط كانت لديهم هذه الأوامر ، ولو جرؤ أحدهم على إطلاق رصاصة واحدة ، لأطلق الروس والبريطانيون النار عليه .

ثم التقط نفسًا عميقًا ، واردف فى ضيق :

ـ لقد انتهى الأمر ، ، فحاولى نسيانه .

انعقد حاجباها فى غضب وسخط شديدين ، وصمتت لحظات ، قبل أن تقول فى عصبية :

ـ ماذا يرى الآخرون فى هذا ؟!..

مطَّ شفتيه فى أسى ، قائلاً :

ـ الجنرال (ماليكوف) يرفض مجرَّد التعليق على الأمر ، خاصة وأن الرئيس الروسى قد منح ذلك المصرى ورفيقيه وسام الشجاعة ، وسير (ويليام) تم إعفائه من الخدمة ، وحوَّلوا مساعده (جون) إلى جهاز الشرطة البريطانى فى (أيرلندا) ، أما الإسرائيلى (راعول) ، فهم يبحثون عنه ، وجندوا كل رجالهم فى (إسرائيل) من أجل هذا .

بدت عليها الدهشة حائرة ، فاستطرد مفسرًا :

ـ لقد استولى على مليارى دولار من الخزانة الإسرائيلية ، واختفى تمامًا .

عقدت حاجبيها ومطَّت شفتيها ، وهى تقول :

ـ هكذا هم .. يرفضون أن يخرجوا مهزومين .. لابد وأن يربحوا شيئًا .. أى شىء ، وبأية وسيلة .

قال فى توتر :

ـ ربما ينطبق هذا عليه ، وليس عليهم .

وافقته بإيماءة متوترة ، ثم سألته :

ـ وماذا عن (كارولينا) ؟!

قال فى مقت :

ـ تتصرَّف على نحو طبيعى تمامًا ، وكأنه لم يكن لها أدنى ارتباط بالأمر كله ، وتعيد تنظيم صفوف رجالها ؛ لتعويض خسائرها .

تردَّدت الوزيرة لحظة ، ثم سألته ، فى شىء من العصبية :

ـ و(سونيا) ؟!

زفر فى توتر ، قبل أن يجيب :

ـ الروس يقولون أن ذلك الوكر تم تدميره على نحو رهيب ، حتى إنه يستحيل أن ينجو منه أى شىء .. أو أى شخص .

سألت :

ـ ولكن ما من جثث ؟!

هزّ رأسه نفيًا فى قوة ، وقال :

ـ يستحيل العثور على أى شىء .

صمتت لحظات ، ثم سألت فى عصبية :

ـ وهل يمكنك الجزم بأن الروس صادقون ؟!

زفر مرة أخرى ، وقال :

ـ صور الأقمار الصناعية تؤيدهم على نحو ما .

تراجعت فى مقعدها ، وسألته فى شىء من الحدة :

ـ وماذا عن ذلك المصرى .. (أدهم) ؟!

أجابها فى حنق واضح :

ـ سيتزوّج .

قفزت من مقعدها ، هاتفة فى استنكار :

ـ ماذا ؟!.. الآن ؟!

التقط الرئيس الأمريكى نفسًا عميقًا ، وقال فى حنق :

ـ نعم ، الآن .

قالها ، فران عليهما صمت عجيب بعدها ..

صمت له رائحة المرارة ..

والهزيمة ..

واليأس ..

كل اليأس ..

* * *

لعق (قدرى) شفتيه بلسانه فى نهم ، وهو يتطلّع إلى مائدة الطعام الذاخرة بكل ما لذّ وطاب ، والتى تتوسّط حديقة ذلك الفندق الكبير فى (القاهرة) ، وغمغم وهو يمنع لعابه من السيل فى صعوبة :

ـ ينبغى أن يسرعا .

سمع صوتًا من خلفه يسأله :

ـ من تقصد ؟!

التفت (قدرى) إلى الدكتور (أحمد صبرى) ، شقيق (أدهم) ، وجراح المخ والأعصاب الشهير ، وهتف :

ـ العروسين بالطبع .

ابتسم الدكتور (أحمد) ، وقال وهو يضع باقة من الورد علـى مائدة قريبة :

ـ تعلَّم الصبر يا صديقى .. المفـترض أن تكون قد اكتسبته ، بعد كل ما مررتم به .

رفع (قدرى) يده هاتفًا ، وهو يشيح بوجهه :

ـ لا تذكرنى !

ثم أشار إلى باقة الورود ، متسائلاً :

ـ باقة عاشرة ؟!

أومأ الدكتور (أحمد) برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

ـ نعم ، تحمل اسم السيِّد (حسن) .

بُهِتَ (قدرى) ، وهو يسأله :

ـ السيِّد (حسن) ؟!.. ألم ...

قبل أن يكمل سؤاله ، قاطعه (أحمد) ، قائلاً :

ـ (هشام) أرسلها .. إنه لن يخـبر (أدهم) بمصرع جده ، على يد الإسرائيليين ، إلا بعد حفل الزفاف .

غمغم (قدرى) :

ـ حسنًا فعل .

صمت (أحمد) لحظة ، ثم سأله :

ـ هل التحق بالمخابرات ، كما أراد جده ؟!

هزَّ (قدرى) كتفيه المكتظين ، وقال :

ـ لن نعرف أبدًا .

ثم نظر إلى المائدة مرة أخرى ، وهتف :

ـ لمـاذا لا يسرعا ؟!

ربَّت الدكتور (أحمد) على كتفه مبتسمًا ، وألقى نظرة أخرى على باقة الورود ، قبل أن يسأله :

ـ قل لى بصراحة يا (قدرى) : هل لـ (أدهم) صلة بتلك الأحداث العنيفة فى (سيبيريا) ، والتى تناقلتها وكالات الأنباء العالمية ؟!

صمت (قدرى) لحظات ، ثم قال :

ـ ربمـا .

ابتسم (أحمد) ، ومال نحوه ، قائلاً :

ـ وماذا عن الصينيين ؟!

سأله (قدرى) فى دهشة :

ـ ماذا عنهم ؟!

قال (أحمد) فى اهتمام :

ـ البعض يقول : إن مخابراتهم بدأت تتورّط فى نشاطات عديدة مستترة ، فى (أوروبا) و(روسيا) ، وحتى فى (أمريكا) نفسها ، وأنها تحاول استغلال اضطراب الأوضاع العالمية لتتفوّق على الجميع .

انعقد حاجبا (قدرى) فى شدة ، وانشغل لأوّل مرة عن المائدة العامرة بالطعام ، وهو يفكر قائلاً :

ـ هل تعلم أن هذا يمكن أن يبسّر الكثير من الأمور ؟!

سأله (أحمد) فى شغف :

ـ مثل ماذا ؟!

تطلّع إليه (قدرى) فى صمت ، وهو يسترجع ما رواه له (أدهم) ، فى طريق عودتهم إلى (القاهرة) ..

استرجع حديثه عن تلك المخطوطات ، التى وصلته بطريقة غامضة ، دون تحديد مصدرها ..

عن أولئك الذين عملت الصينية الحسناء (تيا) لحسابهم ..

عن القوى الجديدة ، التى تتابع صراع الشرق والغرب ، وتنتظر اللحظة المناسبة ، لتنقض عليهما ، وتعلن مولد سيادة عالمية جديدة ..

استرجع عشرات الأمور ، والدكتور (أحمد) يكرّر فى اهتمام :

ـ مثل ماذا يا (قدرى) ؟!

ابتسم (قدرى) ، وهو يقول :

ـ أهذا وقت مناقشة مثل هذه الأمور ؟!

ابتسم الدكتور (أحمد) بدوره ، وقد فهم مايعنيه هذا ، وغمغم :

ـ كلا بالطبع يا صديقى .

عزفت الموسيقى لحن الزفاف فى هذه اللحظة ، فأنقذتهما من حرج الخوض فى الأمر ، والتفتا مع الباقين نحو مدخل الحديقة ، حيث انبعث دخان اصطناعى جميل استغرق لحظات ، قبل أن يعبره العروسان ، لتنبعث من كل الحلوق آهات إعجاب وانبهار ..

كانا أشبه بمشهد أسطورى من رواية حالمة ..

(أدهم) حلته السوداء ، ورباط عنقه القصير ، و(منى) بثوب الزفاف الأبيض ، وهى تتأبّط ذراعه ، وسعادة الدنيا كلها تتفجرُ من كل خلجة من خلجاتهما معًا ..

وفى خفوت حنون ، غمغم الدكتور (أحمد) :

ـ كيف اتخذا هذا القرار أخيرًا ؟!

مسح (قدرى) دمعة سعادة ، انحدرت ساخنة على وجهه ، وهو يقول بكل سعادة الدنيا :

ـ ربما أدركا أخيرًا أن الوقت قد حان .

غمغم أحمد ، وهو يشارك الجميع التصفيق للعروسين ، فى انبهار كامل وسعادة بالغة :

ـ لقد حان منذ زمن طويل .

منحه (قدرى) ابتسامة باهتة ، ثم راح يتابع (أدهم) و(منى) ، وهما يرقصان معًا لأوّل مرة رقصة العروسين ..

وكم بديا له أشبه بمشهد جميل فى رواية رائعة ، بنظرة الحب الجميلة التى يتبادلانها ، وكل منهما ينظر إلى عينى الآخر مباشرة ، وكأنه لا يرى سواه ، وذلك الدخان الاصطناعى يحيط بهما ..

كان لحنًا شديد الرومانسية ، ذلك الذى اختاراه لرقصتهما الأولى ، حتى إن عينى (منى) قد دمعتا ، وهى تهمس :

ـ أهذا حقيقة ، أم أننى فى حلم جميل ؟!

تحسّس وجهها فى حنان وحب دافقين ، وهو يهمس بدوره :

ـ حقيقة يا حبيبتى .. حقيقة أنك ستكونين إلى جوارى ، حتى آخر العمر .

همست بكل الحب :

ـ ألنا زوجتك الآن بالفعل ؟!

همس بابتسامة عذبة :

ـ من حسن طالعى .

همست تسأله :

ـ وماذا عن (آدم) .. ابنك يا (أدهم) ؟!

تحسّس وجهها مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ سنبحث عنه معًا ، وسنرعاه حتى يحب (مصر) ، مثلما أحببناها .

همست :

ـ لن يهدأ لى بال حتى نجده .

قاطعهما فجأة صوت (قدرى) ، وهو يقول :

ـ معذرة يا صديقاى ، ولكن الموسيقى توقفت منذ دقيقة كاملة .

انتبها إلى هذا ، فضحكت (منى) فى حرج ، وهى تقول :

ـ لم ننتبه إلى هذا .

غمغم فى سعادة أبوية :

ـ لو أننى مكانكما لما فعلت .

ثم مال نحوهما ، يهمس :

ـ ولكن ينبغى أن تفتتحا المائدة .. إننى أتضوَّر جوعًا .

أطلق (أدهم) ضحكة قصيرة ، وربَّت على كتفه ، قائلاً :

ـ بالطبع يا صديقى .. دعنا نعلن هذا .

ارتفع لحن خاص ، عندما اقتربا من المائدة ، وانزاح ستار جانبى ، وبرزت من خلفه نادلة ضئيلة الحجم ، تدفع أمامها مائدة متحركة ، عليها كعكة زفاف ضخمة ، حتى إنها تخفى الفتاة كلها تقريبًا خلفها ، ووضعتها أمام العروسين ، ثم استدارت تنصرف فى سرعة ..

ومع ابتسامته ، تابعها (أدهم) ببصره ..

كانت تبدو مألوفة إلى حد كبير ..

أسلوبها نفسه ، وهى تبتعد ، بدا مألوفًا .. للغاية ..

كان يتابعها ببصره ، عندما هتف أحد الحاضرين :

ـ هيا .. اقطعا الكعكة .

ناولهما (قدرى) سكينًا كبيرًا خاصًا ، له مقبض أبيض ، محاط بضفيرة من الحرير ، يحمل طرفاها حرفى اسمهما ، وابتسمت (منى) فى سعادة ، وهى تقول لـ (أدهم) :

ـ سنقطعها معًا .

غمغم :

ـ كما فعلنا طيلة عمرنا .

أمسكا المقبض معًا ، واستعدا لقطع كعكة الزفاف ، و ...

وفجأة ، تذكَّر كل هذه ..

هذا القوام ، وأسلوب الحركة ..

إنها هى ..

(تيا) ..

الصينية الحسناء (تيا) ..

« لا يا (منى) ... »

صرخ بها بكل قوته ، وهو يحاول أن يدفع (منى) بعيدًا ..

تحرَّك بكل سرعته ..

وربما بأسرع مما فعل فى حياته كلها ..

ولكن الانفجار سبقه هذه المرة ..

انفجرت كعكة الزفاف فى قوة ، وانبعثت معها صرخات الجميع ، وساد اضطراب شديد ، وتناثرت عشرات الشظايا فى كل الاتجاهات ، مع الهرج والمرج ..

وفى ذهول ، حدَّق (قدرى) فى ذلك المشهد ، الذى تخلَّف عن الانفجار ..

كانت (منى) ملقاه أرضًا بثوب الزفاف ، وقد غطت الدماء واجهته ، و(أدهم) ملقى على بعد خطوات منه ، والدماء تنزف من جبهته ، وجرح غير واضح فى ذراعه ، وحلته نصف ممزَّقة ، مع جزء من قميصه ..

وعلى الرغم من إصاباته ، اندفع (أدهم) نحو (منى) ، هاتفًا :

ـ لا .. ليس (منى) .. ليس الآن .

لم يكن يبالى بكل إصاباته ، وهو يحتويها بين ذراعيه ، ويرفع وجهها إليه ، هاتفًا :

ـ (منى) .. لا تتركينى الآن يا حبيبتى .. لا تتركينى الآن .

اندفع الدكتور (أحمد) شقيقه إليهما ، وانحنى يفحص نبض عنقها ، قبل أن تتسع عيناه فى ارتياع ، جعل (أدهم) يهتف به :

ـ هل ...

لم يتم سؤاله ، ولكن (أحمد) أومأ برأسه إيجابًا فى أسف وأسى ، ثم خفض عينيه ، متمتمًا :

ـ آسف .

اتسعت عينا (أدهم) عن آخرهما ، وهو يحدّق فى وجه (منى) ، و ...

وانتفض جسد (قدرى) بعنف ..

بمنتهى منتهى العنف ..

فلأوَّل مرة فى حياته ، ومنذ عرف (أدهم) ، قبل حتى أن يلتحق أيهما بجهاز المخابرات ، رأى تلك الدموع ..

دموع رجل المستحيل ..

رآها تسيل من عينيه فى صمت ، وتتساقط كقطرات المطر على وجه (منى) ..

الدموع التى اختزنتها عيناه طويلاً ، والتى لم تذرفها ، حتى عند مقتل والده ..

والعجيب أنه لم يصدر أى صوت ..

أى صوت على الإطلاق ..

فقط راحت دموعه تتساقط على وجه (منى) لحظات ، قبل أن ينتفض جسده ، وهو يصرخ فجأة :

ـ لا .

صرخ بها ، وهو ينهض حاملاً جسدها بين ذراعيه ، وضمها فى حنان جارف ، ثم اتجه بها خارج المكان ..

لم يجرؤ أحد على منعه ، أو اعتراض طريقه ، بل ولم ينبس (أحدهم) حتى بحرف واحد ، وهم يتبعونه إلى الخارج ..

إلى حيث تقف سيارته ، التى حملت على سطحها الخارجى زينة العرس .. وفى بطء ، فتح (أدهم) باب السيارة الخلفى ، ثم أرقد جسد (منى) بكل حنان الدنيا ، على الأريكة الخلفية ، واعتدل يتطلع إليها لحظات فى حزن شديد ، ثم أغلق الباب فى رفق ، واحتل مقعد القيادة ، وأدار المحرك وهنا فقط ، قطع الدكتور (أحمد) ذلك الصمت الرهيب ، وهو يقول :

ـ (أدهم) .. أنت بحاجة إلى الإسعاف .

استدار إليه (أدهم) بعينيه الدامعتين ، وملامحه الجامدة ، فى نفس الوقت الذى ظهر فيه أحد رجال الأمن ، وهو يلهث قائلاً :

ـ لم نستطع العثور على أى أثر لها .

نقل (أدهم) بصره إليه بنفس الجمود ، ثم انطلق بالسيارة ..

انطلق يبتعد ..

ويبتعد ..

ويبتعد ..

حتى اختفت سيارته عن الأنظار ..

اختفت تماماً ..

* * *

بدا نائب مدير المخابرات العامة المصرية شديد الحزن والتوتر ، وهو يشير بيديه أمام المدير ، قائلاً :

ـ لم نعثر لهما على أدنى أثر .

انعقد حاجبا المدير ، وهو يتطلّع إليه ، فتابع بنفس اللهجة :

ـ لم يذهب بها إلى أى مستشفى ، ولا إلى أية عيادة خاصة ، ولم يغادر البلاد ، عبر أية حدود معروفة ، برية أو جوية أو بحرية ، ولم يعد إلى منزله ، أو إلى منزلها ، ولم يرهما أو حتى يلمحهما مخلوق واحد ، منذ غادر بها حفل زفافهما ، بعد أن .. بعد أن ..

لم يستطع نطق العبارة ، ولكن المدير أعفاه من هذا بإشارة من يده ، وهو يقول :

- ولكننا جهاز مخابرات ، ولا يمكن أن يختفى شخص مع جثة ، دون أن نعثر لهما على أثر ، سواء أكانا داخل الحدود أو حتى خارجها .

هزّ النائب رأسه ، وهو يغمغم :

- إذا ما قرّر سيادة العميد (أدهم) أن يختفى ، فما من قوة فى الأرض يمكنها أن تجده ، ما لم يرغب هو فى هذا .

تطلّع إليه المدير لحظات فى صمت ، دون أن ينبس ببنت شفة ..

كان يعلم أنه على حق ..

على حق تمامًا ..

وفى بطء ، نهض من مقعده ، واتجه نحو النافذة ، ووقف لحظات يتطلّع عبرها فى صمت ، قبل أن يغمغم :

- كم هو مسكين .. عاش حياة حافلة بالعذاب والجهد ، وعندما هم بالتقاط لمحة من السعادة ...

لم يتم عبارته ، واكتفى بهز رأسه فى أسى ، قبل أن يقول فى خفوت :

- يحتاج إلى دفنها على الأقل .

تردّد النائب لحظة ، قبل أن يقول فى خفوت :

- لو أنها قد لقيت مصرعها بالفعل .

التفت إليه المدير فى حركة حادة ، يسأله :

- ماذا تعنى ؟!

أجابه فى سرعة :

- ثلاثة من ضيوف الحفل أقسموا أنهم رأوا أصابعها تتحرك ، قبل أن يغلق سيادة العميد باب السيارة الخلفى بلحظة واحدة .

انعقد حاجبا المدير فى شدة ، وهو يقول :

- أصابعها تتحرّك :

غمغم النائب ، فى حذر :

- هذا ما أقسموا عليه .

صمت المدير طويلاً هذه المرة ، وهو يتطلّع إلى ساحة جهاز المخابرات ، وألف ألف فكرة تعصف برأسه ..

تلك المعلومة الأخيرة قلبت كل الأمور فى رأسه رأسًا على عقب ..

وبمنتهى العنف ..

إنه ، كرجل يؤمـن بقوة المعلومات وتأثيرها ، يدرك أن أية معلومة جديدة ، تفرز حتمًا عشرات الاحتمالات ..

وتضيف إلى ما كان مؤكدًا كلمة (ربمـا) ..

تلك الكلمة التى تختل عندها الموازين ..

كل الموازين ..

وفى اهتمام بالغ ، ودون أن يبعد عينيه عن النافذة ، سأل :

ـ وما تعليق الدكتور (أحمد صبرى) على هذا ؟!

أجابه النائب على الفور ، ودون تردُّد :

ـ أبدى دهشته فى البداية ، ثـم بـدا حـائرًا مثلنـا ، وقـال : إنـه فحصها بحواسه فقط ، وبدون أدلة دامغة ، وبدا له أنها قد لقيت مصرعها ، ولكن ...

قاطعه المدير فى حزم :

ـ ولكن ؟!.. هل استخدم هذه الكلمة ؟!

أجابه النائب :

ـ بنصها يا سيادة المدير .

صمت المدير لحظات أخرى ، ثم غمغم :

ـ هذا يصنع فارقًا كبيرًا .

تردَّد النائب لحظة أخرى ، قبل أن يقول :

ـ ولكنه أكَّد فى الوقت ذاته ، أن إصابات سيادة العميد كانت تحتـاج إلى إسعاف عاجل وإلا ...

تردَّد بشدة ، فسأله المدير فى صرامة :

ـ وإلا ماذا ؟!

أجابه فى توتر :

ـ وإلا قتلته .

قال المدير فى صرامة :

ـ هـراء .

ارتفع حاجبا النائب فى دهشة ، وخاصة عندما أضـاف المدير فى حزم :

ـ أمثال (أدهم) لا يموتون .

تضاعفت دهشة النائب كثيرًا ، خاصة وأنها أوَّل مرة يستخدم فيها المدير اسم (أدهم) مجردًا ، بدلاً من رمز (ن ـ 1) ..

أوّل مرة على الإطلاق ..

ولكن دهشته لم تدم طويلاً ؛ لأن المدير تابع فى حزم أكثر :

ـ فـ (أدهم صبرى) ليس مجرّد رجل .

والتفت إليه مكملاً ، بمنتهى الحزم والحسم :

ـ إنه أسطورة .

لم يعلّق النائب بحرف واحد ، ولكن أنفاسه تلاحقت فى انبهـار شديد ، والكلمة تدوى فى أعمق أعماق كيانه ..

نعم .. المدير على حق تمامًا ، فى كل حرف نطق به ..

(أدهم صبرى) ليس مجرّد رجل ..

ـ إنه أسطورة .

والأساطير لا تفنى ولا تموت ..

أبـدًا ..

وأسطورته بالتحديد ، مع تاريخها الحافل ، ستظل حتمًا أسطورة فريدة ، فى سجل الأساطير ..

أسطورة خالدة ، تحمل اسمًا شديد التميُّز لرجل واحد ..

رجل حفر اسمه بحروف من ذهب ، فى تـاريخ التضحيـة والفداء ..

رجل رفع راية (مصر) عالية ، حتى آخر لحظة فى حياته ..

رجل البطولة والبسالة والعطاء ..

رجل المستحيل .

★ ★ ★

تمت بحمد الله وشكره

د. نبيل فاروق

السادس من أكتوبر 2008م

رجل المستحيل

صدر من هذه السلسلة

1 — الاختفاء الغامض .
2 — سباق الموت .
3 — قناع الخطر .
4 — صائد الجواسيس .
5 — الجليد الدامي .
6 — قتال الذئاب .
7 — بريق الماس .
8 — غريم الشيطان .
9 — أنياب الثعبان .
10 — المثال الملعون .
11 — المؤامرة الخفية .
12 — حلفاء الشر .
13 — أرض الأهوال .
14 — عملية مونت كارلو .
15 — إمبراطورية السم .
16 — الخدعة الأخيرة .
17 — انتقام العقرب .
18 — قاهر العمالقة جـ 1 .
19 — أبواب الجحيم جـ 2 .
20 — قلب الثلوج .
21 — مضيق النيران .
22 — أصابع الدمار .
23 — فارس اللؤلؤ .
24 — الضباب القاتل .
25 — الخنجر الفضي .
26 — آخر الجبابرة .
27 — الجوهرة السوداء .
28 — قلب العاصفة .
29 — الصراع الشيطاني .
30 — الرمال الحارقة .
31 — الخطوة الأولى .
32 — خيط اللهب .
33 — القوة (أ) .
34 — مارد الذهب .
35 — قراصنة الجو .
36 — ذئب الأحراش .
37 — مخلب الشيطان .
38 — لعبة المحترفين .
39 — أعماق الخطر .
40 — مهنتي القتل .
41 — الانتحاريون .
42 — الهدف القاتل .
43 — المخاطر .
44 — العين الثالثة .
45 — القضبان الحديدية .
46 — لهيب الثلج .
47 — الرصاصة الذهبية .
48 — شيطان المافيا .
49 — الضربة القاضية .
50 — مهمة خاصة .
51 — سم الكوبرا .
52 — حبال الموت .
53 — ذئاب ودماء .
54 — رحلة الهلاك .
55 — أفعى برشلونة .
56 — الفهد الأبيض .
57 — عملية الأدغال .
58 — إعدام رجل .
59 — انتقام شبح .
60 — دونا كارولينا .
61 — ملائكة الجحيم .
62 — ملك العصابات .
63 — الجاسوس .
64 — تحت الصفر .
65 — الجليد المشتعل .
66 — ألف وجه .
67 — الجحيم المزدوج .
68 — قلعة الصقور .
69 — أجنحة الانتقام .
70 — أباطرة الشر .
71 — ضد القانون .
72 — شريحة القلب .
73 — المتقن الرهيب .
74 — الدائرة الجهنمية .
75 — أسوار الجحيم .
76 — النمر الأسود .
77 — عمالقة مارسيليا .
78 — صحراء الدم جـ 1 .
79 — صفقة الموت جـ 2 .
80 — وكر الإرهاب جـ 3 .
81 — الرجل الآخر جـ 1 .
82 — الأخطبوط جـ 2 .
83 — معركة القمة جـ 3 .
84 — جزيرة الجحيم .
85 — لمسة الشر .
86 — الثعلب .
87 — خط المواجهة .
88 — سفير الخطر .
89 — قبضة السفاح .
90 — الهدف .
91 — الوجه الخفي .
92 — الخطر .
93 — أرض العدو .
94 — كتيبة الدمار .
95 — الصراع الوحشي .
96 — المعركة الفاصلة .
97 — الصقر الأعمى .
98 — القناص .
99 — مذاق الدم .
100 — الضربة القاصمة .
101 — القلاب .
102 — نهر الدم .
103 — المحترف .
104 — الإعصار الأحمر .
105 — عقارب الساعة .
106 — الأفعى .
107 — اتحاد القتلة .
108 — الفخ .
109 — قبضة الشر .
110 — الاغتيال .
111 — معبد الجريمة .
112 — الفريق الأسود .
113 — رياح الخطر .
114 — ممر الجحيم .
115 — بلا رحمة .
116 — مهرجان الموت .
117 — عمالقة الجبال .
118 — الأربعة الكبار .
119 — فوق القمة .
120 — المنيورا .
121 — وجه الأفعى .
122 — الأصابع الذهبية .
123 — المستحيل .
124 — اللمسة الأخيرة .
125 — عملية النيل .
126 — ساعة الصفر .
127 — نقطة الضعف .
128 — الصحوة .
129 — القراصنة .
130 — محيط الدم .
131 — الحدود .
132 — فريق المستحيل .
133 — نمور الثلوج .
134 — الأبطال .
135 — الأستاذ .
136 — المغامرة الكبرى .
137 — مدينة الذئاب .
138 — الضحايا .
139 — الوحش الآدمي .
140 — المواجهة الأخيرة .
141 — رمال ودماء .
142 — رجل وجيش .
143 — الأوراق المكشوفة .
144 — المحترفون .
145 — الورقة الأخيرة .
146 — المأزق .
147 — القاضية .
148 — الخطة (ب) .
149 — المصيدة .
150 — النهاية .
151 — العودة جـ1 .
152 — القناع جـ2 .
153 — الأعراش جـ3 .
154 — الحرب .
155 — الإرهاب .
156 — المواجهة .
157 — السرب .
158 — الخطة .
159 — الهجوم .
160 — الوداع .